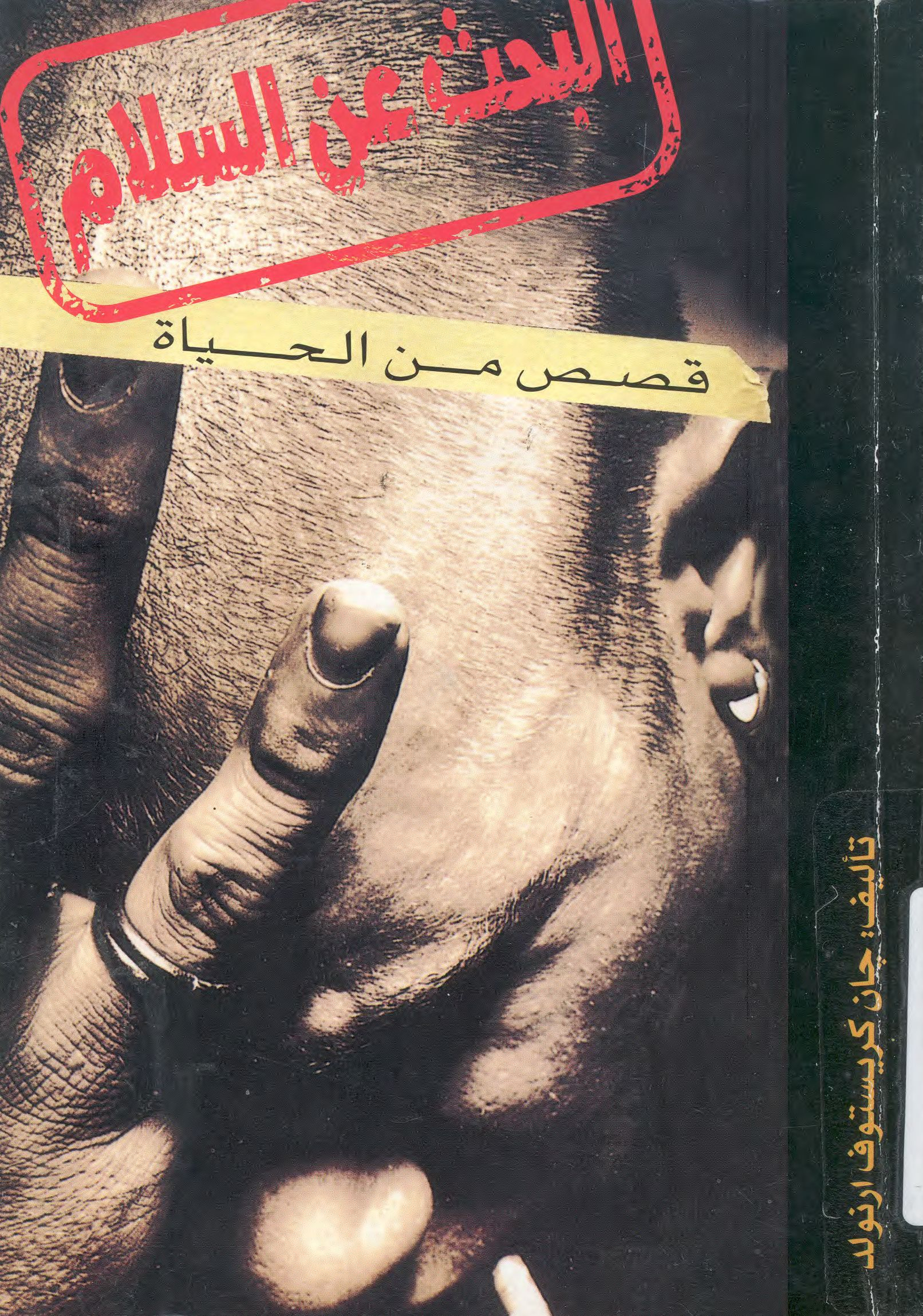

البحث عن السلام
قصص من الحياة
تأليف: جان كريستوف ارنولد

البحث عن السلام

قصص أشخاص

أرادوا المزيد

تأليف

جوان كريستوف أرنولد

ترجمة

قسطندي شومالي

مراجعة

د. ممدوح حليم



طبعة أولى يناير ٢٠٠١

English Title: DRAINED

البحث عن السلام

Author: Johann Christoph Arnold

تأليف: جوان كريستوف أرنولد

ترجمة: قسطندي شومالي

مراجعة: د.ممدوح حليم

Arabic Publisher:

الناشر للنسخة العربية:-

Lighthouse Book Center

مكتبة المنار

17,Murad El-Sherei St
Saint Fatima.Heliopolis,
Cairo, Egypt.
Tel: (202) 6395030
Fax: (202)2403848
Mobil: 012/3233352

١٧ش مراد الشريعي-
سانت فاتيما-مصر الجديدة

تليفون: ٦٣٩٥٠٣٠ (٢٠٢)
فاكس: ٢٤٠٣٨٤٨ (٢٠٢)

رقم الإيداع: ٤٠٧٥ / ٢٠٠١
ترقيم دولى: 977-5674-52-2

إهداء

إلى الذين

يرفضون السير

في الفراغ

المحتويات

كلمة شكر

يحتوي هذا الكتاب على مجموعة من القصص الحقيقية، وأريد أن أشكر جميع الأشخاص الذين سمحوا لي باستخدام قصصهم ورسائلهم في هذا الكتاب. ولقد كانت ثقتهم بنا عاملاً هاماً في إخراج هذا الكتاب.

وأتوجه بالشكر أيضاً إلى الفريق الذي ساهم في إعداد هذا الكتاب في دار نشر بلاف في سسكس بإنجلترا وإلى الأقرباء في أواسيس ميديا والمحررين كرس فول وبول هانزفورد.

وأشكر فوق ذلك زوجتي فيرينا التي قدمت لي كل الدعم والتشجيع طوال عملي في هذا الكتاب.

مقدمة

الرغبة في المزيد

"عندما تكون قادراً على صنع السلام مع نفسك

ستصبح قادراً على صنع السلام في العالم"

سيمحا بونين

بينما كنت أعد هذا الكتاب، شاهدت إعلاناً يحمل صورة امرأة تجلس فوق كرسي على شرفة، وتنظر نظرة عميقة إلى غروب الشمس اللامعة عبر البحيرة . ويقول الإعلان: "وظيفة العمر وأطفال في غاية الجمال وزواج رائع، ولكن إحساساً مضجراً بالفراغ المطلق". لا شك أن الملايين من أبناء البشر يشتركون في هذا الشعور الصامت بقلق. إننا نجد في العمل، ونجد في التسلية، ونسعى إلى الحب، ونحاول أن نضع أنفسنا في جزر صغيرة بصورة منعزلة، وسط بحر متلاطم ترتفع فيه أسعار السندات وتنخفض، ويستطيع فيه مهندسو تكنولوجيا الأحياء تعريف حدود الحياة، ويفرض فيه مصممو الأزياء أنواع اللباس. ورغم ذلك يستمر المد بطريقة ما في الارتفاع. ونشعر في بعض الأحيان بالتعب الشديد والاستنزاف إلى حد يجعلنا غير قادرين على إظهار أي اهتمام ورعاية، ونغمض أعيننا ونتظاهر بأن كل شيء سوف يزول، ولكن لا شيء يتغير بطبيعة الحال.

وسواء كنا نقر بهذا أم لا ، فإننا جميعاً في لحظة من اللحظات نكون في بحث مستمر عن حياة نستطيع أن نشعر فيها بالسعادة، وتكون فيها المثل العليا كالانسجام والفرح والعدالة والسلام من الحقائق اليومية. يقول مونتي بايتون: "إننا نبحث عن شيء مختلف تماماً". يحلم كل واحد منا بحياة لا يوجد فيها مكان للحزن والألم، وفي نفس الوقت لا ينكر أحد منا أن العنف يؤثر في الحياة العامة في كل مكان حول الكرة الأرضية، ابتداء من المناطق الساخنة، مثل العراق وايرلندا الشمالية وتيمور الشرقية والبوسنة إلى شوارع مدننا. وفي مجال الحياة الشخصية والخاصة، نجد أن أكثر بيوتنا في الضواحي التي تتمتع بالهدوء، لكن يكون الصراع فيها هو المبدأ السائد، ونجد الإدمان المضر، والتوتر المدمر الذي ينتشر في أماكن العمل والمدارس والمجتمعات.

ويختفي العنف خلف أكثر الواجهات احتراماً في مجتمعاتنا، والتي يفترض أن تكون متثقفة ومتنورة، ويتواجد في أجهزة الجشع والخداع والظلم التي تحرك أكبر المؤسسات المالية والثقافية. إنه موجود في عدم الأمانة الذي يهز أقوى الروابط الزوجية، والنفاق الذي يقتل حياتنا الروحية، ويجرد أكثر عبارات الدين ورعا الكثير من معناها.

يبحث البعض منا عن تحقيق ذاته بصورة هادئة، ويقوم بتغيير نمط حياته: يبدل المهنة التي يمارسها أو ينتقل من مركز المدينة إلى الضواحي، أو من الضواحي إلى الريف، أو بالتوفير والتبسيط، وبعبارة أخرى بمحاولة تحسين ظروف معيشتنا. ولكن السلام الذي نبحث عنه في أحيان كثيرة يبتعد عنا. ونعرف جيدا بأن عالمنا في حالة من الثورة والهيجان، وأنه رغم الحديث المستمر عن السلام، فانه بعيد وغير متاح. وعندما أخبرت أحد الأصدقاء

المقربين عن مشروع هذا الكتاب، أشار إلى أن الكتابة في هذا الموضوع ليست بهذه البساطة، وفيها شيء من العبث. وعلى ضوء هذه الصورة الحزينة، يبدو أنه من العبث إعداد كتاب عن صنع السلام. ولكن البحث عن السلام والانسجام يبقى رغبة قديمة – حديثة وعالمية ثابتة. لقد شاهد النبي "إشعياء" قبل الآلاف السنين رؤية لزمان ولمكان يختلفان عن زماننا ومكاننا، حيث يسكن الأسد مع الحمل بسلام. ووجد الإنسان، رغم الآفاق المظلمة والمعارك الدامية، الكثير من الأمل في هذا الحلم.

وغالباً ما يكون المعنى الحقيقي للسلام في مجتمعنا مجرداً من معناه الحقيقي، كما يظهر في بطاقات التهنئة، والبطاقات التي توضع في داخل الكتب، ولوحات الإعلانات، وقطع الثياب المطرزة بالعبارات الجميلة، فثقافتنا غارقة في لغة السلام. ورغم ظهور العبارات التي تتحدث عن السلام والتمنيات الطيبة، وبصورة خاصة في المناسبات والأعياد، إلا أنها أصبحت نوعاً من الشعارات. وتتحدث بعض الدول ووسائل الإعلام من جهة أخرى، عن كتائب لحفظ السلام، ولكنها تكون مدججة بالسلاح وترابط في المناطق التي تمزقها الحرب في جميع أنحاء العالم. ويختتم الكهنة والقساوسة طقوسهم الدينية في داخل الكنائس بعبارة "اذهبوا بسلام". ورغم أن هذه الكلمات تعطى كبركة، إلا أنها غالباً ما تبدو أكثر قليلاً من وداع للمصلين حتى يوم الأحد التالي.

إن التوق إلى السلام موجود في أعماق كل كائن بشري. ونكره جميعنا الشعور بالتوتر أو الألم، ولا نحب أن نشعر بالاستنزاف. نريد جميعاً التخلص من القلق والشك والعنف والانقسام، ونريد جميعا الاستقرار والأمن والسلام.

ورغم أن الكثيرين منا يتوقون للسلام، فإننا بشكل عام نريد سلاماً سهلاً يتناسب مع رغباتنا. والمشكلة هي أن السلام لا يأتي بسهولة وسرعة، إذا أريد أن يكون له قوة حقيقية دائمة. فالسلام لا يعني الرفاهية النفسية المؤقتة، أو التوازن والشعور بالسرور اليوم فقط، ثم ينتهي كل شيء في اليوم التالي. ليس السلام الحقيقي سلعة نقتنيها أو نشتريها، وليس قضية نتبناها ونسعى إليها بالنوايا الحسنة فقط. من الأمور المتناقضة أن السلام الحقيقي يتطلب الكفاح، ويقوم على أساس العمل من أجل القضايا الرئيسة في الحياة: الحياة والموت، الخير والشر، الحق والباطل.

وفي بحثنا عن السلام، لا يوجد أكثر أهمية من إدراكنا أن السلام غائب في حياتنا، لوجود أماكن قاحلة في قلوبنا. ويعني هذا بالنسبة للبعض منا مواجهة الحقد والكراهية، أو مواجهة الخداع والولاءات المتعددة والفوضى بالنسبة لآخرين، وقد يكون أيضاً مجرد الشعور بالفراغ أو الاكتئاب. وفي حقيقة الأمر يجب مواجهة العنف والتغلب عليه.

حاولت في الصفحات التالية أن أبتعد عن صياغة الآراء الجاهزة وتقديم البراهين التي لا نهاية لها، وحاولت أن أتجنب الحديث المسهب عن شعورنا العميق بالاستنزاف. وبالرغم من أن المرء يستطيع إعداد كتاب كبير عن هذا الموضوع، فان الخوض فيه سيكون باعثا للاكتئاب، وأكثر من هذا فقد لا نتمكن من تقديم العون في هذا الشأن.

قدم "سادهو سندارسنجه" وهو متصوف هندي مسيحي عاش في بداية هذا القرن، مثالاً لكي يكشف أن سر الحياة السعيدة وحقيقتها لا يمكن معرفته بالتمحيص الفكري. قال:

"أمسك أحد العلماء عصفوراً في يده، وكان هذا العصفور حياً، فأراد أن يكتشف في أي جزء من جسم الطائر توجد هذه الحياة. بدأ بتشريح الطائر. وكانت النتيجة، أن الحياة التي كان يبحث عنها هذا العالم قد اختفت. وأولئك الذين يحاولون فهم أسرار الحياة الداخلية من خلال التفكير فيها، سيواجهون الفشل بنفس الطريقة، فالحياة التي يبحثون عنها سوف تختفي في التحليل."

يمكن أن تجد كتب الإرشاد الروحي في أي مكان لبيع الكتب، ولكن الحياة السعيدة حسب تجربتي ليست كما يتم وصفها في هذه الكتب، وهي في أغلب الأحيان مزيج من الأشياء المعقدة المضطربة. إن العديد من القصص التي يرويها هذا الكتاب جاءت من أصدقاء عرفت قسما منهم لفترة طويلة، وعرفت قسما آخر لفترة قصيرة. والقليل منهم يدعي بأنه يملك السلام بصورة كلية دائمة. ورغم ذلك فانهم يمثلون شهوداً على الطريق التي تقود نحو السلام، نحو الشيء الذي يصعب تحديده، ونعرفه ونريده جميعا. وسيجد كل واحد منا نفسه في مكان يختلف فيه عن الآخر في مثل هذا البحث. ويهدف هذا الكتاب بكل بساطة إلى رسم الطريق التي يمكن أن تؤدي إلى هذا الهدف، وتزويد القارئ بما يكفي من الأمل لكي يبقى سائراً على الطريق.

١

الحياة في بساطة

"يقيد الإنسان بكل شيء لا يستطيع التخلي عنه

ولكنه أقل من قيمة نفسه"

جورج ماكدونالد

تحت عنوان "اتجاهات حديثة"، قدمت مجلة التايم تقريراً عن زوجين شابين انتقلا من ضاحية راقية في ولاية أوهايو، لأن الزوجة سئمت العيش هناك، حيث يمضي الناس معظم وقتهم في العمل بجد، لكي يملأوا بيوتهم الكبيرة بالأشياء الثمينة. كانت الزوجة تبحث عن حياة هادئة بسيطة مريحة.

كانت الحياة في بداية الأمر في محيط بلدتهم الصغيرة الجديد تبدو رائعة، ولكن سرعان ما أدت البطالة المنتشرة بين الناس بعد مضي وقت قصير إلى ارتفاع في معدل الجريمة، وجلبت المتاعب مع الجيران أصحاب التفكير الضيق. قررت هذه المرأة أن لا تستسلم للظروف، وانهمكت في العمل والمشاركة في مشروعات خيرية، مثل ترميم المباني القديمة والمدارس. ولكن هذا الأمر أيضاً لم يجلب إليها ما تصبو إليه من تحقيق الذات. وتوصل الزوجان أخيراً إلى خطة جيدة من أجل الوصول إلى الحياة الهادئة التي كانا يسعيان في الوصول إليها: فلقد انطلقا إلى جزيرة "نانتكيت" في "نيو انجلاند" من أجل

البدء في مشروع إنشاء فندق سياحي.

ولقد أدت الاختراعات الحديثة، والتطور الذي تم خلال الخمسة والعشرين عاماً الماضية، إلى تغيير العديد من مظاهر حياتنا بصورة كاملة، فلقد أحدث جهاز الحاسوب (الكمبيوتر)، والهاتف المتحرك (الموبيل)، والفاكس وغيرها من أجهزة الاتصال اللاسلكية، والبريد الإلكتروني ووسائل التكنولوجيا المتقدمة التي توفر الجهد والوقت، ثورة في بيوتنا وأماكن عملنا. ولكن هل تمكنت هذه الاختراعات من تحقيق السلام والحرية التي نسعى إليها ؟

أصبحنا دون أن ندرك عبيداً لنظام جديد يدفعنا إلى استعمال وسائل التكنولوجيا الحديثة بلهفة شديدة، وإلى إنفاق الأموال. وكأن غسيلا للدماغ قد جرى لنا، وأصبحنا نقبل دون مناقشة المقولة التي تقول: "إن المزيد من العمل يوفر لنا المزيد من الراحة، ويدفعنا إلى القيام بأعمال أكثر أهمية". إن هذا المنطق أعوج، لان التجديدات التي تجري في كل مجال مثل مجالات برامج الحاسوب والسيارات وغيرها، تجعلنا نركض خلفها باستمرار. وعندما نعمل بجد من أجل أن نصبح مثل جيراننا (حتى ولو كان ذلك يخالف ما نؤمن به) يجب علينا أن نسأل أنفسنا أولاً: ماذا وفرت لنا هذه الأشياء ؟ وهل أصبحت حياتنا أكثر سلاماً وراحة ؟

والواقع أن التعقيدات المتزايدة في حياتنا اليوم سلبت منا السلام، وأدت إلى انتشار العصبية والثورة والإضطراب الذي أخذ ينتشر كالوباء بصورة واسعة. وكتب المربي الألماني "فريدريتش فورستر" قبل ٥٠ عاماً، يقول:

"لقد وفرت لنا حضارتنا التكنولوجية، أكثر من أي وقت مضى، الراحة في جميع مظاهر الحياة، ولكن الناس يستسلمون في نفس الوقت أكثر من أي

وقت مضى لمصائب الحياة دون حول ولا قوة. ذلك أن الثقافة المادية والتكنولوجية، لا تستطيع أن تقدم المساعدة في وجه هذه المصائب والصعوبات، وأصبح إنسان اليوم الذي يرتبط بالقشور والمظاهر، لا يملك السلام ولا الأفكار ولا القوة التي تساعده على التحكم في قلقه وشعوره بالانقسام."

إن ثقافتنا المعاصرة لا تتسم فقط بالهيجان، ولكنها مدفوعة به. وكما يقول الراهب الأمريكي توماس مورثون: "إننا نشعر بهوس نحو المكان والزمان، بتوفير الوقت وغزو الفضاء والتنبؤ عن المستقبل، والشعور بالقلق بكل ما يتعلق بالحجم والسعة والكمية والسرعة والعدد والسعر والقوة والعجلة".

ومثلما اكتشف الزوجان اللذان انتقلا إلى "نانتاكت"، فإن البساطة لا يمكنها أن تكون غاية في حد ذاتها، ولست أعرف إذا كانا قد نجحا في العثور على الهدوء الكامل الذي اشتاقا إليه بصورة كبيرة. ولكني تعلمت من خلال تجاربي وتجارب الآخرين، أن البساطة يمكن أن تكون مراوغة مثل راحة البال. إن الطبيعة تكره الفراغ، وغالباً ما تؤدي محاولاتنا لإفراغ حياتنا من الأشياء المتراكمة في فوضى، إلى لا شيء ، أكثر من إفساح المجال لأشياء أخرى متراكمة جديدة. وإذا خاب أملنا في نمط الحياة المادي، وأردنا الهرب من قبضته، فانه سيطلب منا شيئاً أكثر من تغيير نمط الحياة.

وبالرغم من ذلك تبقى البساطة شيئاً يجب أن نكافح من أجله باستمرار، عندما يشغلنا المال أو النشاطات والبرامج، عن الأشياء الهامة في الحياة والعائلة والأصدقاء والعلاقات والعمل البناء. هذه هي الأشياء التي تربطنا وتجذبنا معا.

***

ولد "ستيفان" في مدينة درسدن بألمانيا الشرقية لوالدين كرسا نفسيهما للمثل العليا للحزب الشيوعي، ترعرع وهو يدرك أن عالما من الوفرة المادية يقع على الجانب الأخر من سور برلين. تعلم الطلبة في المدارس الابتدائية مبادئ الماركسية واستمعوا لشرح الأساتذة عن رؤيتهم لمجتمع بدون طبقات. وكان "ستيفان" يتبادل مع أصدقائه أدوات غريبة، مثل لعب السيارات الصغيرة التي تصل إلى حجم علبة الثقاب، وهي الأنواع السائدة من الألعاب في ذلك الوقت، وكانت ترسم صوراً في أذهانهم لذلك المكان الغامض الذي يسمى الغرب. والآن نتركه يروي قصته...

"عشت معظم سنوات حياتي مع والدي واخوتي الثلاثة، في شقة في برج سكني في حي يتكون من مجموعة من المباني السكنية المرتفعة، وعاش كثيرون من الناس بهذه الطريقة. وأقول عندما أتذكر تلك الأيام، إن حياتنا كانت مثل البقاء في غرفة محصنة تحت الأرض. ولم أكن في ذلك الوقت أفكر بهذه الطريقة. فكم عدد الناس في العالم الذين يملكون بيوتا أو شققا سكنية ؟ بالتأكيد لم نكن جائعين، وكان لدينا ما يكفي من الماء الساخن والبارد، وكانت قيمة الفاتورة واحدة بالنسبة لنا، بغض النظر عن الكمية التي نستهلكها.

وعندما بلغت الثالثة عشرة من العمر، تم اختياري من أجل الدراسة في مدرسة خاصة للرياضة. وتركت المنزل وبدأت في التدرب على رياضة الجودو. وحاول المدربون في المدرسة أن يشرحوا لنا أهمية الرياضة التي نتدرب عليها، والمهمة التي سنقوم بها، وكان تدريبنا يتم من أجل المشاركة في الألعاب الأولمبية. وتم إعلامنا بأن حصول أحد اللاعبين من دول الكتلة الشرقية على ميدالية ذهبية، سيوجه ضربة كبيرة ضد الأمبريالية.

كـان يصعـب علينـا أن نفـهم لماذا كـانوا يـهتمون بكـل شـيء. ولم نكـن نفـهم أبـداً كمراهقين يـافعين، لماذا لم يـأت فنـان مثـل "مـايكل جاكسـون" أو"بـروس سبرنجزتين" إلى دول الكتلة الشرقية لإقامة الحفلات الموسيقية. وعندما وصلـت إلى المرحلـة الثانويـة في المدرسـة، كنـت أشعر بخيبـة الأمـل. رأيـت أن الشـيوعية لم تكن كل شـيء كمـا تم تصويرها لنـا، بـل كـانت نوعـا مـن أنـواع البيروقراطيـة، وفي نفس الوقـت لم أعتقـد بـأن الرأسماليـة كـانت إجابـة شـافية كذلـك. إن تجربتنـا في المدرسـة جعلتنـا نشـعر بالمظـالم والاسـتغلال الحـاصل في البلـدان الغربيـة.

كـان عمري ١٧ عامـاً عندمـا إنـهار جـدار برلـين في عـام ١٩٨٩، ولم يؤثـر هـذا الأمر علـي بصـورة كبـيرة، كـان هنـالك قـدر معين مـن الإثـارة الطبيعيـة، ولكنـها بدت مبالغ فيـها قليـلاً. هـل جـاءت الحريـة أخـيراً ؟ وهـل نستطيع الاتحـاد مـع أخوتنـا وأخواتنـا في الغـرب؟. فلـم يظـهر لي أن النـاس قـد اهتمـوا كثـيراً باخوتـهم وأخواتـهم في الغـرب. كـانوا يـهتمون بصـورة أكـبر بمحـلات السـوبرماركت المتلئـة بالبضـائع، ولم يظـهر النـاس في الغـرب إلا الإهتمـام الكبـير في الوصـول إلى أسـواق الشرق، أكـثر مـن إهتمامـهم بمصادقـة الشـعب هنـاك.

ذهبـت إلى برلـين الغربيـة قبـل بضعـة أيـام مـن عيـد الميـلاد لمراقبـة الأحـوال فقـط، وانتقـل كثـير مـن النـاس إلى المدينـة، وذهـب آخـرون للتسـوق مـرات متتاليـة قـدر الإمكـان، وكـانوا يعـودون محملـين بـالمواد المختلفـة، ولكـني وجـدت صعوبـة كبيرة في إنفـاق أيـة نقـود علـى الإطـلاق. اشـتريت بضعـة قطـع مـن الشـيكولاتة فقـط، وبينمـا كنـت أسـير أمـام واجـهات الدكـاكين الممتلئة بالبضـائع، وأحـدق في لوحـات الاعلانـات، لم أتخيـل إمكانيـة العيـش في بيئـة كـهذه .

بـدت لي الشـيوعية والرأسماليـة بعيدتـين بشـكل مؤسـف عـن الحقيقـة. وهكـذا

بدأت أفكر في بدائل أخرى خططت لها في رأسي، لا بل بدأت برسم أفكاري على الورق: مكان يعيش فيه كل شخص، لا فقر فيه، وتكون فيه الحياة بسيطة وهادئة، ويكون للناس وقت لقضائه مع بعضهم البعض.

لم يمض وقت طويل على ذلك حتى أخبرني صديق عن جماعة تعيش في الريف قرب مدينة كولون، ويعمل أفرادها معاً في بيئة لا تهتم بالمال. وعندما قمت بزيارتي الأولى إلى ذلك المكان، تأثرت بنمط حياتهم الخالي من التكلف، والملتزم بالعلاقات الأمينة والمستقيمة. وعدت بعد ذلك بعام لكي أبقى هناك. لقد وجدت "الطريقة الثالثة" التي كنت أبحث عنها.

عندما أنظر إلى الماضي، أدرك أن نمط حياتي في طفولتي كان بسيطاً وفق المعايير الغربية، ولم يكن ذلك النمط في الحياة من خيارنا، ولكنها كانت بتلك الصورة. وأقابل اليوم العديد من الناس الذين يهتمون كثيراً بالحياة البسيطة، فهم لا يشربون حليب السوبرماركت، ويأكلون خبز القمح الصافي، وإنما يعيشون ببساطة، ليس لأنهم لا يستطيعون دفع ثمن أي شيء أفضل، ولكن بسبب وعيهم الإجتماعي أو لأسباب أخرى.

إن البساطة في حد ذاتها بالنسبة لي لا طائل من تحتها، ولكنها عندما تنجم عن قرار من أجل الوقوف ضد تيار يدفع الإنسان إلى السيطرة على كل شيء، ومن أجل أن نعطي الآخرين بدلاً من أن نأخذ منهم، فإنها تكون عند ذلك ثمرة الحقيقة".

٢

الضجيج وأثره

"إن الكلمات أقوى العقاقير

التي تستخدمها البشرية."

رادیارد كيبلينغ

إن عدم القدرة على الصمت، يمثل نزيفاً كبيراً لطاقاتنا وعواطفنا، ومن الأسباب التي تقف عائقاً أمام السلام. ويقابل كل موقف نقرر فيه المحافظة على الصمت والإهتمام بشئوننا فقط، مواقف أخرى تدفعنا إلى الحديث مع الآخرين. وكثيراً ما نفقد الهدوء في حياتنا، لأننا نختار التدخل في شئون الآخرين والحديث والثرثرة.

يعتبر العديد من الناس أن الصمت شيء صارم وشديد في الحياة، ولا يوجد ما يدعو إليه بصورة ضرورية. إنه صفة من الصفات التي يتصف بها الرهبان أو الراهبات ورجال الدين، لأن العديد من أفراد الرهبنات الدينية يلتزمون بفترات من الصمت. ولماذا يجب علينا أن ننظر إلى هذا الأمر بصورة سلبية؟ يستطيع الصمت أن يخفف عنا عبء وجوب الإستجابة. ويستطيع أن يجنبنا المتاعب التي تنتج عن أشياء تافهة.

يشير الكاتب "ماكس بيكارد" إلى أن الصمت من الأمور التي لا ترتبط

بالربح والمنفعة، فلا نستطيع الاستفادة منه أو الحصول على أي شيء من خلاله. فهو غير مثمر وعديم الفائدة، ولكن الصمت رغم ذلك يقدم لنا المساعدة والشفاء والراحة الجسدية. وإنني أعتقد شخصياً بضرورة تخصيص وقت للعزلة كل يوم، ولو لبضع دقائق فقط. إني أقوم في كل صباح كلما كان ذلك ممكنا بجولة هادئة مع زوجتي، ونجد في ذلك طريقة جيدة من أجل مراجعة أفكارنا وفحصها. وأعرف زوجين كبيرين في السن، يقومان كل يوم قبل العشاء بجولة قصيرة من أجل أن يكونا على انفراد معاً، ويستمتعان بالمساء بهدوء.

وإذا كنا نعيش أو نعمل بالقرب من الآخرين في عائلة متماسكة، أو في مجال العمل أو في المجتمع على سبيل المثال – فإنه من الضروري أن نجد الوقت الذي نتمكن فيه من البقاء في عزلة وهدوء . ولقد قال "ديتريس بوفهوفر" الذي أسس جماعة دينية صغيرة في شمال شرقي ألمانيا عام ١٩٣٥، وشنقه النازيون بعد عشرة أعوام لدوره في محاولة اغتيال هتلر في تموز ١٩٤٤، قال: "إن هؤلاء الذين لا يستطيعون العيش في المجتمع، لا يستطيعون العيش مع أنفسهم، والعكس صحيح تماماً. فإن الذين لا يستطيعون العيش مع أنفسهم لا يستطيعون العيش في المجتمع".

ويبدو أنه من السهل المحافظة على الصمت ظاهرياً عندما نكون على إنفراد، ولكننا لا يمكن أن نكون هادئين على الاطلاق داخلياً، وقد نكون منشغلين بالتفكير والتخطيط . ويصبح الصمت أكثر صعوبة عندما نكون مع الآخرين، إذ يتطلب الأمر منا أكثر من عدم الكلام فقط، وإنما الإصغاء.

إن عدم التفاعل أو المراجعة أو الشرح، وإنما الاكتفاء بالإصغاء، هو هدية

بكل بساطة. وكما ذكرت الأم تيريزا (من كلكتا) في إحدى المناسبات: "إن **جميع كلماتنا عديمة الجدوى إذا لم تأت من الداخل**".

يعرف الجميع كيف يكون الجلوس مع الشخص الذي نحبه دون أن نقول شيئاً، فنحن نشعر رغم ذلك براحة تامة. وليس الصمت دائماً مصدراً للسلام، فقد يكون التوقف البسيط في الحديث سبباً للإثارة والإحراج، ونتلمس الإجابة السريعة، لجسر فجوة غير مريحة. ويكون الصمت مرعباً عندما لا تكون الأشياء صحيحة في داخل نفوسنا، أو عندما لا نكون في سلام مع أنفسنا أو لا نشعر بالراحة في حضور شخص آخر.

* * *

اخبرتني إحدى الصديقات مؤخراً كيف أنها تجد صعوبة كبيرة في نسيان الأشياء التي تشغل بالها – ضجيج العمل، وتشتت الأفكار، والقلق حول المستقبل– لكي تصبح هادئة داخلياً. وهي تقول:

"عندما لا يكون الإنسان في سلام مع نفسه، يجد صعوبة في التعامل مع الأماكن الفارغة. إما بصرياً (لا شيء تقرأه أو تراقبه) أو سمعياً (لا شيء تنصت أو تستمع إليه) أو جسمياً (لا شيء تقوم به). إنك تحاول إشغال نفسك عن المشاكل الداخلية – الألم، والأفكار المتصارعة والخوف والاتهامات وما شابه ذلك – ولكنك تشعر بإثارة أكبر."

* * *

ولقد كتبت لي صديقة تدعى صوفي لوبر، وهي صديقة الطفولة لوالدي، وعرفتها طوال حياتي، وهي تقول في رسالتها : "عليّ أن أبذل جهداً كبيراً من أجل الحصول على السلام في حياتي، **وغالباً ما يساعدني الصمت في أن التفت إلى داخل نفسي.**"

قام الجستابو (الشرطة السرية النازية) في عام ١٩٣٧ بشن غارة على الجماعة الدينية الألمانية التي كانت تعيش فيها صوفي وأخوها. وقامت الشرطة بعد اعتقالهم بصف الرجال على جانب الحائط، وأغلقوا الأبواب على النساء والأطفال في داخل غرفة، وحققت الشرطة معهم وأخبرتهم أن عليهم أن يغادروا المبنى والخروج من البلاد خلال ٢٤ ساعة. وتتذكر صوفي ذلك وتقول:

"عندما أرغمنا النازيون على مغادرة بيتنا العزيز على تلال "الرون"، لم يسمحوا لنا أن نحمل أشياء معنا ما عدا ملابسنا التي حملناها على ظهورنا. ولكننا استطعنا أن نحمل الكنوز الداخلية التي نمتلكها – الأفراح والأحزان، لحظات الصراع والفرح، وذكريات سنين عديدة عشناها هناك – في قلوبنا. لم يقدر أحد أن يأخذ منا هذه الأشياء، رغم أنه قد تم تجريدنا من كل الأشياء المادية. وقد ملأني هذا بالفرح الصامت وجلب السلام إلى قلبي."

وفقدت صوفي وزوجها كريستيان بعد سنوات عديدة ولدين بسبب مرض غريب. فقد أصيبا بالعمى في بداية الأمر، ثم ضعفت وظائف المخ، ومات كلاهما في سن المراهقة، سنوات قليلة بين وفاتهما. وتعجز الكلمات عن وصف تلك الكارثة التي حلت بها، وكان التساؤل يثير العذاب في نفس كل منهما، ولكن سرعان ما بدأ الصمت يحل محل هذا التساؤل بصورة تدريجية حتى

تمكنا من الشعور بالقوة والسلام. تقول صوفي:

"سألت نفسي، مرة تلو المرة: لماذا هذه التجربة الرهيبة؟ كان الإحباط في بعض الأحيان أكثر مما يحتمل. وأدركت فيما بعد، في اللحظات التي أستطعت فيها تجميع أفكاري وأشعر فيها بصمت في داخلي، بأن همومي كانت صغيرة جداً. لقد كنا نفكر أنا وكريستيان بحاجاتنا الشخصية، ونسينا بأن هناك آخرين حولنا لديهم حاجات أيضاً."

وفقدت صوفي زوجها في الفترة الأخيرة بسبب إصابته بمرض السرطان، ثم فقدت ابنها الثالث الذي كان متزوجاً ولديه أطفال في حادث كهربائي. ولكنها تخبرنا بأن معاناتها قد علمتها أن تصبح هادئة، وعلمتها أن تترك كل شيء يربطها إلى الوراء. وهي تقول بأن الصمت الداخلي والانعزال قد جعلاها أفضل قدرة على الاستجابة لآلام الآخرين.

ربما يكون "التخلي" الذي تشير صوفي إليه، هو ما عاناه "وليم بن" الذي عاش في القرن السابع عشر (والذي سميت بنسلفانيا على اسمه) عندما وضع النصيحة التالية:

"أحبب الصمت حتى في داخل العقل، لأن الأفكار بالنسبة للصمت هي بمثابة الكلمات للجسم، فهي مزعجة. إن الصمت الحقيقي هو راحة العقل، وهو للروح بمثابة النوم للجسم".

٣

اتــــرك!

"إن الاستسلام لمطالب كثيرة،

وإلزام النفس بمشاريع عديدة،

والرغبة في مساعدة الجميع في كل شيء،

هو الخضوع لنوع من العنف."

توماس مرتون

إن التركيز المستمر على الذات هو من أسرع الطرق التي تؤدي إلى فقدان السلام الداخلي، ويبدو أن بعض الناس يميلون إلى مراقبة أنفسهم باستمرار كأنهم أمام مرآة، ويشعرون بالغضب دون أسباب كافية، وينتهي الأمر بهم إلى الشعور بالاستنزاف بصورة كاملة. ولا يشعر آخرون بهذا الشعور الداخلي، ولكنهم يشعرون بالتوتر لأنهم لا يستطيعون التخلي عن آلامهم القديمة، وقد يكون الأمر نتيجة كراهية أو لعدم تلبية رغبة أو إحباط لم يتم التغلب عليه.

مرت "يونيفريد" بفترة حزن عميقة بعد ولادة ابنها الوحيد ميتاً. ولما كانت غير قادرة على التخلص من شعورها بهذه الخسارة، سيطرت عليها فكرة تقول: إنها فعلت شيئاً خاطئاً أدى إلى ذلك. ورغم أن هذه المرأة كانت طيبة،

وتم التأكيد لها بأن الأمر ليس كما تظن، فإنها لم تستطع الكف عن تعذيب نفسها إلا بعد عدة سنوات. وكانت مشاركتها مع شخص آخر للتفاصيل الكاملة لكل شيء أعتقد أنها أخطأت فيه، وسيلة لكي تتخلص من اتهام نفسها.

ويشير الصراع الداخلي الطويل لدى "وينفريد" إلى نوع من القلق، هذا القلق من شأنه أن يجعل الكثير من الناس يشعرون بالألم النفسي، إنهم يحاولون التعايش مع مأساة يشعرون بمسئوليتهم عنها. سواء كانوا من الناحية الموضوعية يتحملون الذنب أم لا، فإن مفتاح حلها يكمن في التحرر منها. إن تأنيب النفس لا يجلب الشفاء أبداً، وإنما يؤدي إلى رؤية الذات بمنظور غير صحيح.

من الأسباب الأخرى للإحباط الداخلي بالنسبة للبعض: عدم التخلي عن السيطرة التي يحاولون فرضها على الآخرين. ومن خلال خبرتي في الإرشاد العائلي، رأيت كم يكون هذا الأمر مدمراً، عندما يتعلق الأمر بطبيعة العلاقة بين أحد الوالدين والطفل. ويمكن التغلب على القلق في العديد من البيوت وخاصة بين المراهقين، لو تمكن الأهل من رفع سيطرتهم عن أبنائهم، ولم يشعروا بانزعاج دائم عليهم، وتخلوا عن الضغط عليهم فيما يتعلق بخططهم المستقبلية. كانت أمي مدرسة، واعتادت أن تقول للوالدين: "<u>إن أكبر خدمة تستطيعون تقديمها لأطفالكم هي إعطاؤهم الحرية الكافية وعدم ربطهم بكم</u>".

وتؤدي الروابط العاطفية إلى حصول التوتر خارج البيت أيضاً، والميل إلى التدخل في شئون الأخرين، وتقديم النصح إليهم أو انتقادهم، وتدفع بعدد كبير من الناس إلى الإرهاق العصبي، وتجعل الحياة تعيسة حولهم.

إن "مولي كيلي" وهي صديقة معروفة بخبرتها في شئون الجنس لدى المراهقين، لها آراء قيمة حول طريقة البحث عن السلام الداخلي ودور الحرية في توفيره، تقول :

"نشأت في عائلة كاثوليكية تتكون من خمسة إخوة وأخت واحدة ، وكان والداي يكنان لنا الكثير من الحب. ولم تسر الأمور كلها بصورة جيدة، ولكن الحب كان هو الرباط الذي جمع بيننا. ذهبت إلى الجامعة وقابلت "جيم" فارس أحلامي: كان شاباً وسيماً في كلية الطب في جامعة جورج تاون. وكان زواجنا كما يقول المثل، نعمة حلت من السماء، فلقد أحبني "جيم" وأحببته، ورزقنا خلال الاثنتي عشرة سنة التالية بثمانية أطفال.

وتغيرت حياتي بصورة نهائية في أحد الأيام قبل ٢٢ عاماً ، فلقد خرجنا أنا وجيم في عطلة نهاية الأسبوع مع أفضل أصدقائنا، ولم يكن من السهل الذهاب في مثل هذه العطلة بسبب ارتباطات جيم في المستشفى وبسبب أطفالنا. ولهذا شعرنا بفرحة كبيرة ومثيرة. وكان برنامجنا أن نقضي نهاية الأسبوع في منتجع شتوي في جبال "بوكونو" في "بنسلفانيا". وسأسرع في سرد القصة عليك بالانتقال إلى الحادث الذي وضعني في قلق وحزن كبيرين، وأثر على كل جزء من كياني، وبقي هناك لسنوات طويلة

كنت على قمة مجرى المزلجات أتحدث إلى الأصدقاء عندما لاحظت في أسفل المنحدر حركة غير عادية. كان جيم قد نزل لتوه أسفل التل على مزلجة، ولم أكن أراقبه، ولم أكن أعرف بأن الأمر يتعلق به. رأيت عدة أشخاص يلوحون لنا، وتساءلت عما كان يحدث، ثم صرخ أحد الأشخاص،

وطلب مني أن أنزل عن التل بسرعة لأن جيم قد أصيب، ركضت كل الطريق أسفل التل وأنا أنزلق وأسقط وأنهض ثانية، وعندما وصلت إلى مكان الحادث، كان هناك جمهور حول جيم، أفسحوا المجال لي وركعت إلى جانبه، وكان شبه واع ينزف دما بغزارة. سوف أترك التفاصيل لكي أصل إلى النتيجة: إن جيم قد مات.

أصبت بفاجعة كبيرة وأصبحت كالحطام، فلقد كان جيم أقرب الناس إليّ، أب لأطفالنا وباني أحلامنا. لم أستطع أن أتصور الحياة بدونه. ولن أنسى لحظة ذهابي إلى البيت، ومعانقة كل واحد من الأطفال بعد أن عرفوا بوفاة والدهم. كان الابن الأكبر جيم في الثانية عشرة من عمره، وكان الأصغر داني في الشهر الرابع عشر من عمره. كان الأطفال الكبار بوجه شاحب، يشعرون بالحزن ويمسكون ببعضهم، وكان الأطفال الصغار غير متأكدين مما يحدث. وامتلأ البيت بالناس والضجيج، لقد أحاط بنا الأهل والأصدقاء وكنت أشعر بالامتنان الكبير لهذه الحماية والمحبة المتدفقة، ولكني كنت أشعر بألم كبير ولا أستطيع أن أقدم الشكر لأي منهم. كنت جريحة وأنزف مثل جيم، ولم يستطع أحد شفاء جراحي أيضاً. وهكذا سالت جراحي وتقيحت خلال السنوات التالية.

تمكنت من العناية بالأطفال الذين كنت أحبهم كثيراً، ولأني وعدت نفسي أن لا أسيء لذكرى جيم بتربية أطفالنا بشكل سيئ. كان الأطفال يريدون لعب كرة القدم في غرفة المعيشة، وجعلوا وسادات المقاعد ملعباً، وطالبوني بالمزيد من الوقت والصبر. كان لدي الوقت، ولكنه كان ثقيلاً عليّ،

ويبدو لي أنني لن أنجز كل الذي كان عليّ عمله. ومرت الأيام بتثاقل، ولم يكن يأتي وقت النوم حتى أنام وأنسى، ولو لوقت قليل بأن جيم قد توفي، فلقد كان الصبر يعوزني .

لم أكن وحدي أبداً، ولكنني كنت أشعر بالوحدة بشكل لا يصدق. وعندما عاد السلام إلى نفسي فيما بعد، اكتشفت الفرق بين الوحدة والانفراد. لا زلت أخشى من الوحدة ولكني أصبحت أحب الأوقات التي أكون فيها بمفردي."

بعد فترة قصيرة من وفاة زوجها تبنت مولي قضية كانت تهمها كثيراً، وهي الإجهاض. فقد كان جيم طبيباً كاثوليكياً يؤمن بقداسة الحياة وينتقد الإجهاض بقوة وقد شاركته مولي في آرائه. تقول "مولي":

"بدأت في التعامل مع القضية في مدارس ثانوية كاثوليكية محلية، وبعد سنوات قليلة أصبحت أتحدث كثيراً عن هذا الموضوع. وأعددت برنامجاً. وأدركت بعد فترة بأنني لم أصل إلى قلب المشكلة، وتحققت بأنه عليّ الحديث عن جذور الإجهاض التي ترتبط بحالات الحمل غير المرغوب فيه، والذي له علاقة بالجنس العابر. وهكذا بدأت الحديث عن المسئولية الجنسية، وانهالت علي الدعوات من أجل الحديث عن هذا الموضوع، وطلب مني أن أتحدث في مدارس كثيرة وفي أماكن عديدة، حتى أصبحت أشعر بالارتباك.

أقترح عليّ الأصدقاء أن أقلل من أحاديثي، ولكني شعرت بأنني مدعوة لها، ولم أكن على استعداد للتخلي عنها. كنت أشعر أن شخصاً ما يجب أن يتحدث عن الأمر، وأدركت عندها بأن الذي عليه أن يقوم بذلك هو أنا.

أحب أن أكون مسيطرة. كنت أم ثمانية أطفال وقدت السفينة متماسكة، اشتريت الطعام وجهزت الوجبات وغسلت الملابس وساعدتهم في واجباتهم المدرسية وذهبت إلى المسرح وحفلات الرقص، وكنت رئيسة لجنة البيت والمدرسة. ولم تكن كلمة الاستسلام من مفرداتي. والأمر الذي لم أدركه، أن الاستسلام لا يعني التخلي عن ذلك بقدر ما يعني تسليم الأمر إلى آخرين.كان علي أن أتخلى عن سيطرتي وقلقي ووحدتي وارتباكي وحتى عن أطفالي وأترك شخصاً أقوى مني يستلم الزمام. وفي كل ناحية من حياتي حيث تمكنت من عمل هذا فإن السلام الملموس الذي اختبرته كان تقريباً فورياً."

لقد تحدثت إلى أكثر من مليون مراهق وإلى العديد من الألوف من الوالدين. وخاطبت أخيراً تجمعاً لستة آلاف كاهن في روما وإجتماعاً لخمسين كردينالا وأسقفاً في كاليفورنيا.

"يمكن أن يكون برنامجي صعباً ولكنه لم يعد يربكني بعد. إن شعوري بالسلام عميق، واستقر الهدوء في نفسي، طالما كنت أقوم بتجديد استسلامي. كنت أقول "نعم" عندما يطلب مني الحديث، عندما أكون قادرة على ذلك، وأقول لا عندما لا أستطيع ذلك. هل أنا دائماً على صواب؟ أشك في ذلك. ولكني أصبحت أدرك أنه بالاستسلام فقط يحل السلام الحقيقي.

عدد لا يحصى من الناس يكافحون بشجاعة حتى عند الشعور بالإنهاك، لأنهم لا يريدون التراجع، ومصممون على قيادة حياتهم مهما كلف ذلك. ومثل هؤلاء الناس يلتزمون كثيراً ثم يأخذون أياماً للنقاهة. يعملون على خلق التوازن في برامجهم وتحديد أولياتهم. يحاولون أن يكونوا لطفاء ومحبين في البيت

وصبورين في العمل. ولكنهم في نهاية اليوم بدون سلام حقيقي.

ومهما بذل الإنسان من جهد فان القوة التي يمتلكها صغيرة والحلول التي يمكن أن يقدمها جزئية، فهناك حدود حقيقية لما يستطيع كل منا عمله، والإقرار بذلك يجعل من السهل التخلي عن مشاكلنا، وحاجتنا لحل كل واحدة من هذه المشاكل بطريقتنا الخاصة. وكما اعتاد مارتن لوثر كينج أن يقول: " إننا لسنا مستقلين بالقدر الذي نحن نعتمد فيه على بعضنا البعض. وعندما ندرك هذا، فإننا سوف نكتشف بأن ذلك هو أكبر عقبة يمكن تسلقها."

لقد اغتالت رئيس اساقفة السلفادور اوسكار روميرو رصاصة قاتل في عام ١٩٨٠ بسبب كلامه الصريح في الدفاع عن الفقراء الذين تم استغلالهم في بلاده. إنه لم يولد شجاعاً وتم تعيينه رئيس أساقفة لأن كل من السلطات الكنسية وقادة البلاد العسكريين فكروا بأنه الشخص المناسب الذي سيدافع عن الوضع الراهن والمحافظة عليه. ولكن ثلاث سنوات قصيرة حولت روميرو إلى بطل للدفاع عن حقوق الإنسان. ورغم أنه عرف معنى الشك الذاتي والتردد، فلقد أختار أن يركز همه على قضية أعظم من نفسه. والكلمات التالية المنسوبة إليه تلخص طريقته في معالجة العوائق التي واجهته:

"من المفيد أن نعود بين الفينة والأخرى إلى الوراء لكي ننظر إلى ما نقوم به على المدى البعيد. لا يوجد شيء نستطيع القيام به بصورة كاملة، ولا يمكن تحديد الأهداف التي تشمل كل شيء. وهذا هو نحن: نزرع البذور التي ستنمو يوما ما، ونروي البذور المزروعة، ونحن نعلم بأنها تحتوي الأمل في المستقبل.

نرسي القواعد التي سوف تحتاج إلى المزيد من البناء . لا نستطيع أن نفعل كل شيء، ونشعر بشيء من الحرية عندما ندرك هذا، ويساعدنا هذا في عمل الأشياء الصغيرة، بصورة جيدة. يمكن أن تكون غير كاملة، ولكنها تمثل البداية، وخطوة على الطريق. ويمكن أن لا نرى النتائج النهائية أبداً، ولكن هذا هو الفرق بين معلم البناء والعامل."

وإذا عدنا إلى الوراء ندرك أن روميرو قد قال هذه الكلمات لنفسه، وفي نفس الوقت إلى الذين كانوا يستمعون إليه. كانت حياته سوف تنتهي حالاً بشكل فجائي وعنيف، وكان سيموت قبل رؤية النتائج الإيجابية التي ستأتي في النهاية للذين كان يقاتل من أجلهم. وعندما سأله أحد الصحفيين قبل أسبوعين من إغتياله عما إذا كان خائفاً من الموت، أجاب روميرو:

"إذا قتلوني فسوف أقوم ثانية في شخص شعب السلفادور، وأقول لك هذا بتواضع وبدون مخاطره، سيكون الموت من أجل حرية شعبي كشاهد للأمل في المستقبل. يمكن أن تقول إنهم إذا جاءوا ليقتلوني، فإني سوف أسامح وأبارك هؤلاء الذين يفعلون ذلك، وآمل أن يدركوا أنهم سوف يهدرون وقتهم. سيموت أسقف واحد، ولكن الشعب سيبقى ولن يزول."

وأظهرت الأيام والشهور التالية بعد وفاته صحة هذه الكلمات، عندما تقدم فرد تلو الآخر لمواصلة القتال من أجل حقوق الإنسان، وجمعوا قوتهم معاً من أجل نضال أعظم من نضال رجل واحد. كان روميرو على صواب: **كل ما يستطيع المرء منا فعله هو أن يزرع البذور، وهو واثق بأن الآخرين سوف يهتمون بها حتى تزهر يوما ما.**

٤

المهارة المفقودة

"من يختار الانتقام

عليه أن يحفر قبرين"

مَثل صيني

كان مايك وبريدي ماكجولدرك يستمتعان بالعطلة التي طال انتظارها، في بيتهما الصغير المتحرك قرب "ورنبوينت" في أيرلندا الشمالية، وبينما كانا يستمتعان بالراحة والاسترخاء التفتا إلى جهاز التلفاز لسماع الأخبار. وذكر خبر في ذلك اليوم الموافق ٨ تموز ١٩٩٦ أن النار قد أطلقت في مدينة لورغان على سائق سيارة أجرة، وأصيب في رأسه وقتل. وأدعت جماعة شبه العسكرية مسئوليتها عن الحادث الذي وقع في رعية "درمكري" الصغيرة. وأدعت أن عملية القتل تعود إلى الخلاف القائم حول خط سير السيارات، حيث قامت هذه الجماعة بطلب سيارة أجرة وهي تعرف بأن السائق سيكون بالتأكيد كاثوليكياً – ولذلك فانه كان الهدف الرئيسي. وعندما أذيع هذا الخبر، لم يثر اهتمام بريدي ومايك بصورة خاصة، رغم أن ابنهما الوحيد مايكل كان يعيش في لورغان وكان يقود سيارة أجرة. ولو كان الأمر يتعلق به لكان قد تم إعلامهما بصورة مسبقة. ولكن النشرة الأخبارية اللاحقة قدمت معلومات أكثر وضوحاً، وذكرت أن سائق سيارة الأجرة الذي قُتل، كان في

بداية الثلاثينـات مـن عمـره، ومـتزوج ولـه طفـل صغـير وزوجـة حـامل بطفـل آخـر. وفي تلـك اللحظـة نظـر مـايك وبريـدي إلى بعضـهما البعـض بدهشـة كبـيرة، وكـان الخـبر كالصاعقـة بالنسـبة لهمـا: لقـد تخـرج مـايكل يـوم الجمعـة فقـط مـن جامعـة كويـنز في بلفاسـت. مـات مـايكل مـاكجولدرك وعـرف والـداه بـالأمر بـهذه الطريقـة. ويتذكر مـايك هـذه الحادثـة ويقـول:

"ركـض كـل منـا إلى الخـارج، ركعـت علـى ركبـتي وضربـت الأرض بقبضـتي. نظـرت إلى السـماء وصرخـت: "إن الصلـب أسـهل علينـا ممـا نشـعر بـه". والتفـت إلى زوجـتي بريـدي وقلـت لهـا: "لـن نبتسـم في هـذه الحيـاة مـرة أخـرى". كـان مـايكل هـو الابـن الوحيـد، وهـو كـل مـا لدينـا في هـذا العـالم. وبعـد وقـوع الحادثـة مباشرة، جاء إلى المكان الذي كنـا نقيـم فيـه أفـراد مـن العائلـة، وأكـدوا لنـا أن الـذي قتـل كـان هـو ابـني مـايكل. وعدنـا إلى بيتنـا، وطلبنـا في تلـك الليلـة مـن جميـع الأقـارب والأصدقـاء أن يغـادروا البيـت، لقـد قررنـا أنـا وبريـدي أن ننتحـر، فقمنـا بترتيب البيـت، وأخذنـا حمامـاً وارتدينـا لبـاس النـوم استعداداً لذلـك.

لا زلـت أتذكـر تلـك اللحظـات وأنـا ذاهـب إلى المطبـخ للحصـول علـى شـيء آكلـه، إذ لم أرغـب في تنـاول حبـات الـدواء علـى معـدة خاويـة. كـان الأصدقـاء والأقـارب قـد تركـوا الثلاجـة مليئـة بالمـأكولات. أخـذت شـريحة مـن الخـبز وصنعـت سـاندويتشـات. رجعـت إلى غرفـة المعيشـة وجلسـت علـى المقعـد إلى جـانب بريـدي. تنـاولت لقمـة مـن السـاندويتش ولكنـها لصقـت بسـقف فمـي. التفـت ونظـرت إلى بريـدي، بينمـا كنـت أحـاول أن أزيـل هـذا الخـبز مـن سـقف فمـي. وقلـت في نفسـي في تلـك اللحظـة: ألسـنا أغبيـاء؟ وفجـأة تخليـت عـن فكـرة

الانتحار.

وفي اليوم التالي ، يوم الأربعاء، كنت أسير على أثر مايكل. كان يتملكنا الشعور بأن المصيبة التي حلت بنا كانت سيئة وكبيرة. وقابلنا في ذلك اليوم أم انتحرت ابنتها البالغة من العمر ١٧ عاماً قبل وقت قصير. وأدركنا أن هنالك إمرأة كانت تمر بمشكلات أكثر صعوبة منا. وأتذكر بأن مفتش الشرطة قد قال عندما جاء لزيارتنا : إن الأمر الذي حدث لكم يا سيد ماكجولدريك هو أسوأ شيء يمكن أن يحدث لأب". فقلت له: "كلا يا سيدي، إن أسوأ شيء يمكن أن يحصل لي هو أن يأتي ابني إلى البيت ويقول لي بأنه قتل سائق التاكسي". كانت تلك هي الحقيقة.

كانت مراسم دفن مايكل ستجري يوم الخميس، وقال لي أحد الأشخاص: "هل ترغب في وداع ابنك الوداع الأخير؟" وصعدت الدرج إلى حيث كان ابني مسجى. وضعت يدي فوق يديه، وقلت:" مع السلامة يا بني، سوف أراك في السماء." وفجأة أحسست بشعور عظيم يأتي من فوق ويعطيني القوة. ولم أعرف طبيعة هذا الشعور في ذلك الوقت، ولكنني الآن أعرف. وأتذكر بأن أحداً ما قال لي:"لا تعتقد بأنك في وضع يسمح لك بالمساعدة في حمل التابوت". فقلت: "كلا إنني أستطيع أن أحمل نعش ابني في رحلته الأخيرة".

وعرفت أن كاميرات التلفزيون ستكون إلى جانب القبر – وهي دائماً هناك في هذا البلد – وأردت أن أوجه رسالة لهم. فكتبت على ورقة: "ادفنوا كبرياءكم مع ابني"، وأضفت في أسفلها: "سامحهم". ونقلت هذه الرسالة أمام عدسات المصورين وقلت: "أنا أسامحهم، وعائلتي تسامحهم أيضاً".

وتم الأمر بالحقيقة بمثل تلك البساطة، فرغم الألم الفظيع لخسارة ابننا، عرفت أنا وبريدي أن المسامحة كانت خيارنا الوحيد. وإلا لكان سيأكلنا الحزن والمرارة .

لم أكن قبل اغتيال مايكل أتردد إلى الكنيسة – أعتدت أن أذهب إلى حضور القداس لكي تشعر بريدي بالسعادة، ولكن حياتي تغيرت بعد وفاة مايكل. وشعرت بصورة مختلفة أنني أكثر قرباً من الله، وأن قلبي أكثر استجابة، ولم يغادرني هذا الشعور أبداً. وهو نفس الشعور الذي لا يزال يبقيني حياً إلى هذا اليوم. ولقد غيرّت مسامحة الذين قتلوا ابني حياتي كلياً.

ورفضت "بريدي" أيضاً رغم حدة ما كانت تشعر به، أن تترك الغضب يسيطر عليها. وكانت الصدمة في بداية الأمر قد جعلتها تتعذب دون أن تصدق: لماذا ابني ؟ وهي تتذكر وتقول:

"لم يولد مايكل في أيرلندا الشمالية، كان اسكتلنديا مثلي، وكان ذلك واضحاً في لهجته. إن الألم الذي شعرت به، لا يستطيع إدراكه وفهمه إلا الأم التي فقدت ابنها. كنت في عالم آخر، أراقب الأشياء تحدث حولي، وكأن لا شيء منها يحدث لي."

وتمكننا من خلال الدموع والحزن من امتلاك القوة من أجل أن نسامح. وأتذكر بأنني كنت أستعد للذهاب إلى القداس في صباح أحد الأيام عندما انفجرت زوجتي فجأة باكية، وقالت لي: "ما بك، هل كنت لا أحب مايكل بالدرجة الكافية؟" فقلت: "ماذا تعنين؟" قالت: "يا مايك. لماذا لا أشعر بالغضب؟ لماذا لا أشعر بالكراهية نحو هؤلاء الذين قتلوه ؟. قلت "حسنا يا

بريدي، لا أعرف. إن هذا هبة من الله". كلانا شعر بأن علينا أن نعني ما نقول عندما نتلو الصلاة الربانية :"إغفر لنا خطايانا كما نحن نغفر لمن أخطأ إلينا".

ويقوم مايك وبريدي بتركيز جهودهما في إدارة جمعية المساعدات المسيحية المتحدة، وهي جمعية خيرية تقوم بتجميع الملابس والأدوات المنزلية وتصنيفها وحزمها، وترسل بعد ذلك إلى رومانيا ليتم توزيعها على المحتاجين. ويرى آل ماكجولدرك في وجوه الأطفال الرومانيين والذين تيتم العديد منهم، وجه ابنهما. وتقوم هذه الجمعية الخيرية بتوفير مساعدة من نوع آخر لشعب أيرلندا الشمالية أيضاً: "إذ يدرك الناس من خلال العطاء، أن حاجة الآخرين هي أعظم من حاجتهم، وقد شاهد مايك وبريدي كيف كوّن الكاثوليك والبروتستانت صداقات عبر الفواصل الطائفية.

وقبل موت مايكل لم يخاطر آل ماكجولدرك إلا نادراً في الذهاب إلى ما وراء المنطقة الكاثوليكية التي يعيشون فيها. واليوم لا يوجد مكان أو جماعة إلا ويذهبان إليها . ويطلب إليهما في الكثير من الأحيان حضور اللقاءات من أجل أن يرويا التجربة التي مرا بها، ولا يرفضان أبداً الفرصة للحديث عن المسامحة. ويقول مايك:

"يوجد الكثير من الطائفية في هذا البلد، الانقسامات بين الكاثوليك والبروتستانت، رغم أنهم جميعاً مسيحيون لكن لا توجد هنا تغطية إعلامية كافية للمظاهر الطيبة بين الناس والمسامحة التي تجري بينهم. لا يقولون لك بأن الكاثوليك والبروتستانت يشتركون في الصلوات، رغم أن هذه حقيقة

تحدث كل يوم بصورة أكبر.

إذا أراد السياسيون الحديث عن السلام ، فهذا جيد. ولكن السلام لا يمكن أن يتم بالحديث عنه فقط ، وإنما علينا أن نعمل من أجل تحقيقه. ولا أزال أقول إن الناس الذين يملكون السلام في داخل قلوبهم يستطيعون فقط الحديث عنه ، وإلا فإنهم يتحدثون عن شيء لا يعرفون شيئاً عنه على الإطلاق. تستطيع الحديث عن السلام عندما تكون قد اختبرته في قلبك حقاً. أستطيع أن أتحدث عن السلام لأنني أعرف ما هو السلام، وانه يأتي عندما نسامح. إننا نجد صعوبة في المسامحة، وخصوصاً إذا كان الحقد يزداد وينمو على مدى فترة طويلة ، فانه سيأخذ وقتا وجهداً لاقتلاعه. ومهما كانت طبيعة الألم الذي نشعر به ، حقيقياً أو خيالياً، فانه سوف يأكلنا طالما نعمل على تغذيته.

وبسبب كون الطبيعة الإنسانية على ما هي عليه ، فانه المقدرة على رؤية الخير في الآخرين نادرة. ويكتنف علاقاتنا مع القريبين منا أيضاً شيء من الضباب بين الفينة والأخرى ولو كانت بصورة شكاوى تافهة. ويتطلب السلام الحقيقي مع الآخرين جهداً، والاستعداد للتنازل أو التخلي أو الصمت في بعض الأحيان. ويتطلب أحياناً أخرى الصراحة أو المواجهة والانتقاد بشجاعة. والشيء الوحيد الثابت في علاقاتنا إذا أردنا أن نحقق السلام، **هو الاستعداد لان نسامح مرة تلو الأخرى.**

* * *

قابلت عام ١٩٨٨ أثناء زيارة لإسرائيل الأب إلياس شقور للمرة الأولى. وهو كاهن فلسطيني رشح عدة مرات لجائزة نوبل للسلام، وعرف في أنحاء العالم بجهوده التي لا تعرف الكلل من أجل المصالحة والسلام في وطنه. إن الشعور بالمرارة لديه أمر يمكن تبريره . فلقد دمرت قريته وطرد سكانها في عام ١٩٤٧، وتعرض هو للسجن أكثر من مرة، وتحمل المضايقات التي كانت تفرضها عليه الحكومة الإسرائيلية لفترات طويلة. ويبقى هذا الرجل "الذي لا وطن له" أكثر الناس الذين عرفتهم دفئاً وتعاطفاً، وعندما يتحدث عن المسامحة يقول:

"لماذا يجب عليَّ أن أحب هؤلاء الذين هدموا بيتي ؟ لماذا يجب عليَّ أن أحب هؤلاء الذين عذبوني؟ إنه أمر صعب أن تحب أعداءك. ولكن إذا كنت مدعواً لأن أحب مضطهدي، عند ذلك يجب أن أفعل كل شيء لأذكره بأن لا كرامة له أبداً، إلا إذا رأى كرامته في وجهي. وهذا ليس استسلاماً لعدوك. إنه الوقوف عالياً لكي تقول للذي يعذبك: "لقد آذيتني كثيراً إلى درجة أنني أسامحك". لا تذهب إلى الشخص الموجود تحت أقدام المضطهد، وإنما أذهب إلى المضطهد نفسه، وقل له بأن يتخلى عن اضطهاده، حتى يستطيع الشخص الذي تحت أقدامه بأن ينهض ويقول: "أنت أخي وأنا أسامحك".

لا علاقة للمسامحة بالعدل، أو بوجود عذر لعمل الشر، إنها في الواقع تعني مسامحة شخص ما لأجل شيء لا يمكن إيجاد عذر له. ومن السخرية، أن الذين يعانون من أسوأ الأشياء في الحياة غالباً ما يسامحون بسرعة. وعندما نجد العذر لشخص ما، فإننا نزيل الخطأ جانباً كما لو أنه لا شيء. وفي المقابل عندما تسامح شخصاً ما، يمكن أن يكون هنالك من الأسباب للتمسك بآلامنا،

ولكننا نتخلى عنها بأية حال. نرفض البحث عن الانتقام. ويمكن أن لا تقبل مسامحتنا دائماً، ولكن مد اليد للمصالحة ينقذنا من الغضب والحقد. ولو كنا مصابين بالجروح، فان الميل للمسامحة يمنعنا من الرد بغضب على شخص سبب لنا هذا الألم.

لا يعني هذا بأنه علينا ابتلاع ألمنا، بل على العكس، إن الذين يدفعون بمظالمهم إلى اللاوعي في محاولة لنسيانها، إنما يصيبون أنفسهم بالإعاقة النفسية. وقبل أن نستطيع أن نسامح ما يصيبنا من ألم، يجب أن نتمكن من مواجهته. وفي بعض الأحيان بالطبع، لا يمكن أن نواجه الشخص الذي نسعى إلى مسامحته، وعند ذلك فإن أفضل حل هو أن نشترك بالألم مع شخص آخر نثق به. وعندما نفعل ذلك، يجب أن نتخلى، وإلا فسوف نبقى حاقدين للأبد وننتظر إعتذاراً لن يأتي أبداً.

وبطبيعة الحال يجب أن نسعى من أجل أن يسامحنا الآخرون أيضاً. كل واحد منا أصيب بالألم مرة أو أخرى، وكل واحد منا سبب الألم لآخرين. لذلك يجب أن نسامح لأننا بحاجة لمسامحة الآخرين، وبدون المسامحة لن نجد السلام. وبعد كل ذلك، وبغض النظر عن الصورة الطيبة التي نميل إلى تصوير أنفسنا بها، فلا أحد منا بدون أخطاء.

* * *

وثمة أسطورة عن الأخ أنجلو الذي كان راهباً في رهبانية القديس "فرنسيس الاسيزي" توضح ذلك بشكل جميل.

قام الأخ أنجلو عشية عيد الميلاد بتنظيف كوخه الجبلي البسيط ، وزينه استعداداً للصلاة. قام بتلاوة صلواته ووضع ابريقاً فوق النار، ثم جلس ينتظر القديس فرنسيس الذي توقع حضوره لاحقاً ذلك اليوم. وظهر في تلك اللحظة ثلاثة أشخاص من الخارجين عن القانون عند الباب وطلبوا طعاماً، فشعر الأخ أنجلو بالخوف والغضب، وقام بطردهم وتوبيخهم، محذراً بأن اللصوص مصيرهم نار جهنم. وعندما وصل القديس فرنسيس، شعر بأن شيئاً ما لم يكن على ما يرام، فاخبره الأخ أنجلو بقصة الأشخاص الذين جاءوا لزيارته. وقام القديس فرنسيس بعد أن سمع القصة، بإرساله إلى البحث عنهم في الجبال، وزوده بجرة من النبيذ ورغيف من الخبز، وسأله أن يطلب غفرانهم. فشعر الأخ أنجلو بالغضب ولم يتمكن من النظر إلى هؤلاء الرجال المتوحشين كإخوة له كما فعل القديس فرنسيس - وإنما نظر إليهم كمجموعة من اللصوص الخارجين عن القانون. ولكن الأخ أنجلو انطلق يبحث عنهم بأمر الطاعة، وتتبع آثارهم فوق الثلج إلى أن وجدهم وسط الجبال وتصالح معهم. وتقول القصة إن الرجال بعد فترة من الوقت تركوا كهفهم وانضموا إلى الرهبنة.

٥

كن واقعياً

"إن مواجهة النفس من أصعب الأشياء.

من الصعب أن تنظر إلى نفسك وتحاول أن

تجد ما هو حقيقي أو غير حقيقي فيها.

والشئ الأصعب هو أن تتمكن من إزالة

الغمامة من فوق عينيك."

جون لينون

إذا سألني أحد ما أن أحدد المتطلب الأكثر ضرورة للسلام الداخلي، سوف أقول: إنه الأمانة. سواء كان ذلك يعني الصدق بمفهوم عام، أو معرفة الظروف الحقيقية، أو تسمية الأشياء باسمائها، أو الاستعداد للإقرار بالفشل أمام الآخرين. إن الأمانة هي المبدأ الأساسي للسلام. يمكن أن نناضل من أجل السلام حتى موتنا، ولكننا لن نجده إذا كنا غير مستعدين لوضع أنفسنا تحت الضوء أمام الحقيقة. إن عدم الأمانة هو واحد من أعظم المعوقات على الطريق الموصلة إلى السلام، لأنها تمنعنا من إيجاد منطلق سليم نبني عليه بحثنا.

يقول توماس ميرتون: "علينا أن ندرك بأن الشخص الذي هو نحن، هو

في أفضل الأحوال مضلل وغريب. علينا أن نعرف دوافعه وخفاياه باستمرار. وإلا كان الفشل مصير محاولاتنا لمعرفة أنفسنا." وقد أدرك شكسبير هذا بقوله:

"فوق كل شي: كن صادقا مع نفسك

إن هذا أمر حتمي كما يتبع الليل النهار

لا تستطيع أن تكون كاذباً مع أي إنسان"

وبالطبع فان قول ذلك أسهل من فعله. وقد أخبرتني صديقتي "جانيت"، بأنها كامرأة شابة بحثت عن السلام سنة بعد الأخرى – من خلال الحركات العمالية والمنظمات السياسية والمجموعات الجامعية والتعاونيات وغيرها – ولكنها في نفس الوقت أهملت شيئا أساسياً وحيوياً إلا وهو الاهتمام بالمشاعر التي تعتمل في داخل نفسها. وهناك عدد كبير من الناس مثلها. ولم يثمر بحثها عن السلام إلا عندما تصالحت مع نفسها بالمراجعة الداخلية بعمق وأمانة.

إن معرفة الذات هي الخطوة الأولى فقط. وهي لا تجلب وحدها السلام، ويمكن أن تقودنا بعيداً عن السلام بوضعنا في دوامة من الاهتمام بالنفس. وغالباً ما يكون النفاق هو النتيجة النهائية، وتصبح الحياة كأنها تمثيلية. وربما كان أكثر الناس مخاطرة في هذا المجال، هؤلاء الذين يذهبون بعيداً لكي يظهروا كأنهم إناس طيبون.

ونقوم نحن جميعا في فترة من الفترات، بوضع أقنعة لأنفسنا محاولين الظهور أمام الآخرين بمظهر جميل. وكان الممثلون في المسرح اليوناني القديم يضعون الأقنعة على وجوههم من أجل تصوير الشخصيات المختلفة. وكان

الممثل يتمكن من الانتقال بسرعة من دور إلى آخر بتغيير القناع. والواقع أن الكلمة اليونانية "للممثل" يفهم منها كلمة "منافق" في الإنجليزية. وبنفس الطريقة فان كل واحد منا لديه أقنعة يرتديها أحياناً. وباختصار فإننا جميعاً نأخذ دورنا في تمثيل دور المنافق.

ولكي ندرك من نحن في الواقع، يجب مواجهة القضايا التي تجنبناها في السابق، ونترك المجال لمواجهتها بأنفسنا. ولا يأخذ معظمنا هذه الخطوة الأولى لسوء الحظ، لأننا نخاف أن يطلب منا أن نتغير. ونحن نتردد في التخلي عن الشعور بالرضى الذاتي، ونحاول إقناع أنفسنا بأنه لا توجد أشياء سيئة، وأن كل شيء يسير على ما يرام. وحبذا لو عرفنا كم يكون السلام عميقا وعظيما عندما يأتي مع الشعور الواعي بحالتنا الداخلية الحقيقية.

إن "سيلفيا" الآن هي في التسعينات من عمرها، كانت تشغل وظيفة موسيقية واعدة في لندن قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية، وكانت فتاة مثالية، ويسارية ملتزمة. وكانت كالكثيرين من جيلها قد شاركت بحماس في حركات السلام في شبابها. ولكن الموقف غير الثابت للعديد من "دعاة السلام" في معارضة أعمال القتل، وفي نفس الوقت عدم معارضة المظالم الاجتماعية، جعلها غير راضية ودفعها إلى طلب المزيد. تقول "سيلفيا":

"كنت أنا وزوجي رايموند نجتمع بانتظام مع عدد من الأصدقاء من أجل مناقشة قضايا الساعة، وكنا نبحث عن أفضل السبل في متاهة الأفكار الإنسانية – الحرب والسلام والسياسة والأخلاق التقليدية، والحرية الجنسية، ولكننا لم نصل إلى طريق أفضل من أجل إيجاد مجتمع سلمي أو عادل."

وبعد مرور فترة من الزمن، وخلال الولادة الطويلة والصعبة لطفلها الأول، ظهر لسيلفيا فجأة، أن حياتها الشخصية تتميز بنفس المتاعب التي كانت تحاربها في المجتمع. ورغم الإمكانات المتألقة لمستقبلها في الموسيقى، فقد كان زواجها في مأزق وأفكارها متوترة. وشعرت بصراحة بأنها مستنزفة. ولهذا فقد قررت قبل المساهمة بأي عمل لتحقيق السلام في العالم، أن تنظر بأمانة في حياتها، وأن تجد السلام في داخلها ومع الآخرين.

إن العيش في ظروف تتميز بعدم الثبات يمكن أن يصبح عادة. وعندما نعتاد عليه يمكن أن نصبح غير صادقين ثم مخادعين. وعندما يحدث هذا، فان الأمر يتطلب جهدا كبيرا لنزع الأكاذيب التي نختبئ خلفها، لكي نصبح أمناء مرة ثانية مع أنفسنا ومع الذين كنا نخدعهم. وكما قال والدي مرة: "يتطلب السلام الكامل أمانة كاملة، فدعنا نكون صادقين ونقول ما نفكر به حتى ولو كان بعيدا عن الهدف، بدل استعمال الكلمات الصحيحة دون أن نعنيها. لا نستطيع أن نعيش في سلام مع الآخرين ما لم يكن الصدق في قلوبنا".

وعندما أتذكر الأحاديث التي جرت مع أشخاص مروا بأوقات صعبة، أستطيع القول إن المعركة بين الصدق والخداع يصعب خوضها، خصوصا عندما يخدع شخص بالاعتقاد بأن الأمانة هي ثمن مرتفع ندفعه مقابل السلام الداخلي. ومثل هؤلاء الناس لا يشعرون بحاجة إلى محاربة الأشياء منذ البداية، لأنهم يغلقون عيونهم بصورة كاملة عن حقيقة أنهم يعيشون أكذوبة.

وفي رواية "الاخوة كارامازوف" يقدم لنا الروائي الروسي الكبير دويستويفسكي شخصية مشابهه: فيودور بافلوفيتش، رجل مسن يسأل الأب زوسيما

بسخرية، ماذا عليه أن يفعل ليكسب الحياة الأبدية. فيبدأ الكاهن بالقول بأن عليه أن يتجنب الوقوع في حفر الحياة الفاسقة، ثم يضيف هذه الحكمة:

"فوق كل شيء، **لا تكذب على نفسك**. إن الرجل الذي يكذب على نفسه ويصغي إلى أكاذيبه يصل إلى مرحلة لا يستطيع فيها التمييز بين الحقيقة في داخله وحوله، وهكذا يفقد كل احترام لنفسه وللآخرين. وإذا فقد الاحترام، يتوقف عن الحب. ولكي يشغل نفسه ويلهيها، يستسلم للأهواء والملذات الحسية، ويغوص إلى درجة حيوانية في رذائله، وذلك بسبب استمراره في الكذب على الآخرين وعلى نفسه. إن الرجل الذي يكذب على نفسه يمكن أن يهان بسهوله أكثر من أي شخص آخر. أنت تعرف بأن لا أحد أهانه، ولكنه اخترع الإهانة لنفسه، كذب وبالغ لكي يجعلها بصورة رائعة. امسك بكلمة وصنع من الحبة قبة. هو يعرف ذلك بنفسه، ولكنه سيكون الأول في أخذ الإهانة، وسيحتفل بكراهيته حتى يشعر بسرور عظيم فيها، وهكذا يستمر حتى يصل إلى الإنتقام الحقيقي."

وإذا كنا نصر على الوصول إلى سلام حقيقي في داخل قلوبنا، فان الحل موجود دائما: علينا أن نقر بضعفنا ونقائصنا وأعمالنا الخاطئة أمام شخص آخر. وعندما نكتشف عدم الانسجام بين شخصيتنا الحقيقية، والشخصية الأخرى التي نقدمها إلى الآخرين، سنتمكن من إدراك أسباب التوتر، ونتمكن من مصالحة الاثنين. وحتى لو أصلحنا الطرق التي نسير عليها وتحولنا عن أخطائنا السابقة، لا نستطيع أن نحقق السلام الكامل للنفس إلا عندما نكون على استعداد لمشاركة الآخرين بما نعاني منه من أعباء خفية.

لقد استمرت آن في البحث عن السلام والسعادة وتحقيق الذات سنة بعد الأخرى، حتى توقفت أخيرا عن السير في هذا البحث وواجهت نفسها بصدق. هذه كلماتها:

كان لدي كل ما تطلبه المرأة: زوج محب، وأربعة أطفال في غاية الروعة والجمال، وما يكفي من المال، وبيت أدعوه بيتي. ولكن جزءا مني كان يصرخ في الداخل: "لا أريد كل شيء". يجب أن يكون في الحياة شيء أكثر من زوج لطيف والأطفال والبيت المريح والثراء. أصبحت يائسة وخائفة. "لماذا كنت هكذا غير سعيدة ؟"

تمت تربيتي في عائلة كانت تبدو جيدة في المظهر الخارجي. عمل والديّ بجد. كان يشتغل والدي عاملا في إحدى المصانع، وكانت أمي ربة للبيت، وظن الناس حسنا بنا، ولم ينتبه أحد إلى الجحيم الذي كنا نهلك فيه.

لم يعلم أحد أن والدي كان يضرب أختي المراهقة بحزام أمام كل أفراد العائلة، لأنه كان لا يعرف الأسلوب المناسب للتعامل معها، وترك مزاجه الشخصي يستولي عليه. لم يعلم أحد أن العديد من الأشياء التافهة البسيطة مثل سكب كأس الحليب على طاولة عند العشاء كان كافيا لكي يضع والدي في حالة غضب شديد يستمر لمدة ساعتين.

عشنا في خوف وفزع من ارتكاب الأخطاء أو إثارة غضب والدي. وفوق ذلك كان يحتسي ست علب من البيرة أو أكثر كل ليلة عندما يعود للبيت من عمله، أو يحتسي صندوقا كاملا من البيرة في عطلة نهاية أسبوع. وإذا فقد أعصابه بعد كل هذا، وكان ذلك يحدث عدة مرات في الأسبوع، كان هناك

الشيء القليل الذي يمكن عمله، وخاصة أمي التي جلست هناك وتحملت كل ذلك بصمت. وكان يستمر بنوبات غضبه طيلة المساء. وهو يقذف أمي بالشتيمة القذرة ويضرب بقبضته على الطاولة.

وكنا في بعض الأحيان نسمعه يصرخ في أمي. وكنا نحن الأطفال نركض إلى غرفنا، أو نترك البيت ونذهب للبحث عن صديق للبقاء معه أو نرفع صوت التلفاز. كنا نشعر بالفزع والارتباك، ولم يكن باستطاعتنا أن نفعل شيئا من أجل حجب غضب والدي.

شيء واحد قمت به لكي أهرب من كل هذا الألم، وكان ذلك هو الغناء. تعودت الغناء وغنيت كثيرا بحيث أزعجت إخوتي وأخواتي كثيراً. وكنت أقول: "حسنا، أنا على الأقل لا أقاتل". لم أدرك ذلك الأمر في ذلك الحين بالطبع، ولكن أغنياتي كانت وسيلة للتعبير عن قلقي. شعرت بأنني غير محبوبة رغم أني أردت ذلك، وفكرت قائلة: إذا كنت جيدة وتصرفت بشكل جيد سيكون الآخرون سعداء، ولو كان هنالك سلام في عائلتي لكنت سعيدة. وعندما أصبحت أكبر سناً، شعرت بأنني لم أستطع أن أعمل شيئاً بالشكل الصحيح، ولم أكن أساوي كثيراً على أية حال. وازدادت الأمور سوءاً في سنوات مراهقتي وتورطت في جميع الأشياء العادية. والأسوأ هو أن كل شيء كان مخفيا: حاجات طفولتي والأعمال السيئة لمراهقتي.

وكنت في مظهري الخارجي شابة طبيعية مستقيمة ومتدينة أيضاً. ولكن نفسي كانت مليئة بالهيجان والظلام. وكانت حياتي كذبة كبيرة. وعندما تزوجت ظننت أن مشاكلي سوف تحل بعضها البعض ولكنها استمرت. وكان

زواجي مثل طفولتي وشبابي، يبدو رائعا من مسافة بعيدة، ولكنه كان في الواقع في حالة من الفوضى.

عندما كنت صغيرة، دفعني اليأس إلى الصلاة طالبة المساعدة. ولم أكن أتوقع أن يعمل الله أي شيء. لم أفكر بأن الله يحبني. كنت سيئة ومقتنعة بأن الله لا يحب شخصا مثلي. وكلما أردت أن أكون محبوبة وأثير الاهتمام، أصبحت أكثر صلابة وأقل قدرة على قبول الحب.

والآن بعد أن أصبحت امرأة متزوجة ولدي عائلة كبيرة، فأنني لا أزال أفقد السلام. عرفت الشك بالنفس وكراهية الذات لوقت طويل، وبدأت في إلقاء هذه المشاعر على كل واحد. وكرهت العالم كله. وكنت غاضبة وشعرت بأنني مرفوضة ولا قيمة لي، كنت محطمة عاطفياً.

وكنت بحاجة إلى التخلص من ألم الماضي أكثر من أي وقت مضى. ولكنني بحثت عن الحرية في جميع الأماكن الخاطئة. وللصدق والأمانة، فإني كنت أبحث عن شيء واحد، كنت أتابعه بعاطفة يائسة: أردت أن أكون محبوبة. بحثت عن الحب في زوجي بوب، ولكني شعرت بأنه لم يكن على المستوى المطلوب، وبحثت عنه في أصدقائي، ولكنهم فشلوا أيضاً. بحثت عنه في الله أيضاً. بطريقة ما بقي الحب خارج قبضتي ولم أتمكن من الشعور بالحب أو اختباره.

وقبل بضعة أعوام، وخلال فترة كنت مختلية فيها مع زوجي بوب، وقد أخذنا ننظر إلى مسار حياتنا، ونحن نقوم بعملية علاجية مؤلمة جداً من أجل الشفاء في ذلك الوقت، لأنها قادتنا إلى الحقيقة الصعبة إلا وهي أن زواجنا

كانت تشوبه الفوضى. أدركنا بأنه كان علينا مواجهة بعضنا بأمانة مرة وللأبد.

وأثناء هذه الفترة الصعبة وجدت السلام. وكان عليّ أولاً أن أقوم بالاكتشاف المهين، ألا وهو أنني كنت إنسانة أنانية بصورة كاملة، أفكر فقط بتحقيق سعادتي. وكنت إضافة إلى ذلك مليئة بالكراهية نحو زوجي، الذي ظننت بأنه قد خيب ظني، ولم يتمكن من أن يعطيني الحب الذي أحتجت إليه وأردته بشكل يائس. صحيح أن بوب خيب ظني بطرق كثيرة، ولكني الآن أدركت بأنني كنت عاطفية بصورة زائدة. كنت لعدة سنوات أمتص ما لديه من الحب، وسبباً في تراجعه، وباختصار كانت المشكلة تكمن فيّ أنا. وأستطعت أن أقر أخيراً بأن انهماكي بنفسي كان السبب الرئيس لتعاستي.

وسألت الله أن يساعدني كما فعلت من قبل عندما كنت صغيرة، ولكني أعتقدت في هذه المرة بأنه سوف يساعدني. وشعرت فجأة بالندامة بسبب الآلام التي سببتها للآخرين، بدلاً من شعوري بالأسف حيال نفسي. وشعرت لأول مرة في حياتي برغبة لمسامحة الذين أساءوا إليّ خصوصاً والدي. شعرت بالندامة تجاه الله، وشعرت بمحبته وبالقبول والمسامحة أيضاً.

وعندما بدأ "بوب" و"آن" في مناقشة هذه الأمور، رأى أحدهما الآخر كما لم يره من قبل. لقد تمكنا أن يسامح بعضهما البعض بسبب الأشياء التي جعلت زواجهما تعيساً.

"ليس لدي دائما الشعور بالسلام. لا زلت أكافح مشاعر القلق في بعض الأحيان، أو أعود إلى المخاوف القديمة والأشياء التي تثير لدي القلق. لا يزال علي أن أعمل لأكون ذاتي الحقيقية، وأحارب المغريات التي تدفعني إلى

إرضاء الناس أو كسب استحسانهم. يستطيع الإنسان أن يحقق ذاته من خلال عمل للآخرين. ولا يهم ما يكون هذا العمل. وأجد أحياناً السعادة في الجلوس مع الأطفال أو عند القيام بالأعمال المنزلية. وأجد السعادة أحياناً أخرى في إعداد وجبة طعام أو في غسل الملابس. وأنا أشعر بالامتنان عندما أحصل على فرصة للعناية بشخص مسن.

ورغم ذلك لا تزال لدي بعض الجوانب السلبية، أنا متأكدة من ذلك، ولكني أجد نفسي مقبولة بالحالة التي أنا عليها الآن. أنا قادرة على استعمال طاقتي لمساعدة الآخرين بدلاً من التركيز على نفسي. ووجدت هدية لم أكن أجدها عندما كنت أبحث عنها لنفسي، ألا وهي الفرح الخالص.

إن كشف نوايانا الحقيقية إلى شخص نحبه ونثق به، هو تجربة مؤلمة دائما. ولكن كما سنرى لاحقاً في فصول هذا الكتاب، لا يوجد طريقة أخرى لهذه المشكلة. وإذا أردنا أن نجد السلام، علينا أن نكون مستعدين لقبول ثمنه مهما كان غالياً. إن البحث عن السلام الرخيص هو كالبحث عن السراب. محاولة لا فائدة منها ومتعبة.

يمكن أن نفقد السلام في لحظة من اللحظات، من خلال الخداع أو الكبرياء أو التصلب في الرأي أو الراحة الكاذبة، ومن أجل الخروج بطريقة سهلة. وليس الوقت متأخراً جداً من أجل أن نبدأ في البحث عن السلام مرة ثانية، حتى لو كان قد ابتعد عنا عدة سنوات. وعندما نتمكن من النظر بأمانة إلى أنفسنا – "إلى عيوبنا وكل شيء" – لن يكون من الصعب التركيز على حاجتنا للسلام.

٦

سلام يفوق كل عقل

ثق بالطبيب وأشرب دواءه في صمت وسكينة

لان يده رغم كونها ثقيلة وقاسية، إلا أن يد

الله الشافية تحركها والكأس التي يحضرها،

رغم أنها تحرق شفتيك قد صنعها "الخزاف"

من الطين الذي بلله بدموعه المقدسة

جبران خليل جبران

لقد تعلمنا منذ الطفولة أن الثقة لها مخاطرها، وهذا صحيح بطريقة ما. إن الثقة ترتبط بالمجازفة. وتعني الثقة أن نحسن الظن بالآخرين. إنها تتطلب الرغبة في حماية أنفسنا. إن عدم الثقة الذي نتعلمه في طفولتنا كأسلوب لحماية أنفسنا، يكون سبب تدميرنا ونحن كبار. نتعلم أن نبقي الآخرين خارجاً لكي نتجنب المخاطر. وتكون العزلة التي تنشأ قاتلة، لأنه دون ثقة لا نستطيع أن نشارك ولا أن نحب.

إن الثقة ليست مثل السذاجة النابعة من الإرادة الضعيفة. إنها لا تتطلب منا أن نسير في الحياة غير مضطربين وسعداء، ونتظاهر بأن كل شيء على ما يرام، وأخذ الأمور على علاتها. إن هذا النوع من "الثقة" يكون انتحاريا في

عـالم اليـوم. ولكـن البديـل وهـو عـدم الثقـة والشـك أمـور مميتـة بدرجــة متسـاوية . يقـول الكـاتب "دانيـال هـس":

وليـس الأمـر أن العمـال يتمتعـون بالتـأمين الصحـي، وأن أسـبوع العمــل المكـون مـن أربعين ساعة عمـل يوفـر الوقـت والفـراغ، وأن الرواتــب تعطــي بعضنــا قــدرة علـى التأثـير، وأن العلـم قـد قطـع شـوطا كبيرا في جعـل الأجـهزة آمنـة، والتنبــوء عن ظروف الطبيعة المتقلبة. فرغـم مـن كـل ذلـك فنحـن مـا زلنـا نشـعر بـالقلق.

لا زال النـاس يمتلكـون أعصابـاً مشـدودة ويصــابون بالإجــهاد والتعــب بســبب العـادات الـتي تعلموهـا، والانشـغال والخـوف ممـا يمكـن أن يحـدث، والفـزع الـذي يســببه الإدمــان والاكتئــاب، بســبب عــدم التــوازن وكــثرة الالتزامــات الكثـــيرة والرغبـات العديـدة الـتي لا يمكـن تلبيتــها.

كثـيرون هـم الذيـن يشـعرون بــالقلق والتوتــر في علاقاتــهم بســبب الاحتكــاك، ويشـعرون بـالنقص بسبب الخيانـات. يعـانون مـن المخـاوف الحقيقيـــة للإجــراءات القانونيـة، والمنافسـة غـير العادلـة، والتحقـير والسـيطرة.

ومـن المحـزن أن تكـون الخيانـات والـثرثرة واغتيـاب النــاس، مظــاهر طبيعيــة في الحياة اليوميــة، وسبباً في أبعـاد الكثـيرين مـن النـاس عـن محاولـة تكويـن الثقـة. كانت "كلـير" في أحـد الأيـام سـيدة أعمـال، وتكـرس الآن الكثـير مـن وقتـها للعنايـة بسيدة مسـنة، وقـد كتبـت تقـول:

"إن عدم الثقــة يعـوق السـلام. يمكـن أن نحـاول الدفـاع عـن أنفسـنا وعـن هـؤلاء الذيـن نحبـهم بكوننـا حذريـن، ولكـن ينتـهي الأمـر بنـا في بنـاء أسـوار مـن الشـــك. إذا حـاول أحـد أن يستغلنا أو أن يتصـرف بشــكل غــير عــادل نقفــز إلى افــتراض

الأسوأ – ليس فقط بسبب ذلك الموقف المحدد، ولكننا نستمر من بعد ذلك في النظر إلى الثقة كعلامة ضعف أو شيء سخيف أو مبسط.

عندما لا نثق بالآخرين، نفكر بأننا نحمي أنفسنا، ولكن العكس هو الصحيح. إن المحبة هي أعظم حماية وأعمق أمن. إذا كنا لا نثق، لا يمكننا إعطاء المحبة و تقبلها، إننا بهذا نفصل أنفسنا عن الله وعن بعضنا البعض.

وفي المجتمع يخلق قرب بيوتنا ومشاهد الحياة اليومية إمكانية هائلة للتوترات التي يسببها الإحباط والتخمين والثرثرة. لكننا وجدنا أن الالتزام المتبادل و"الكلام المفتوح" يمكن أن يحافظ على الثقة والسلام بصورة حقيقية.

ويجب عدم توجيه الملاحظات المباشرة أو التلميح ضد أي شخص أو ضد صفاته الفردية – ولا أن يتم الحديث من وراء ظهره بأية حال من الأحوال. والثرثرة في العائلة غير مستثناة. إن الكلمة الصريحة الموجهة إلى شخص آخر تعمق الصداقة وتكون مقبولة."

لا تزال "الن" تتذكر خبرتها إذ تقول: "عندما أكتشفت بأنه لن يكون هناك قيل وقال – ولا حديث عن أي شخص من وراء ظهره – شعرت بأن ثقلا هائلا ينزلق عن أكتافي. فقد كان القيل والقال طريقة حياة في المكان الذي قدمت منه. وكنت مثل بقية الناس أقلق حول ما كان يقوله الناس أو يفكرون به عني من وراء ظهري، ولكني في الحقيقة لم أفحص أسباب القلق هذه عن كثب، ولم أدرك كم كانت حملاً مخيفاً، تؤثر على حياتي سنة تلو الأخرى. وبعد أن أصبحت أعرف الآن بأنه إذا شعر أحد ما بشيء خاطئ نحوي فانه سيأتي ويخبرني – يعطيني الشعور بأن أرضاً جديدة تحت أقدامي."

وفي كثير من الأحيان تنقطع علاقاتنا مع الآخرين بسبب نقصان الثقة، أو لأي سبب آخر. لا نجرؤ على الاعتقاد بأننا سنكون محبوبين تماماً بكل نواقصنا وعيوبنا. ولكن ذلك هو بالضبط ما ينبغي علينا عمله. وبدلاً من تبديد حياتنا في الخوف وعدم الثقة يجب أن نكون على استعداد للثقة بالآخرين بشكل مستمر، حتى أولئك الذين يخونوننا.

كيف نجد هذا المستوى من الثقة؟ لا توجد طريقة سهلة ولا معادلة مضمونة. ولكن الشيء الوحيد المؤكد أن مستوى الثقة لدينا له علاقة مباشرة مع النظرة الموجودة لدينا عن أنفسنا. إذا كنا نصر على إعطاء قيمة أكبر لآرائنا أكثر من آراء غيرنا، يجب أن لا نتعجب إذا كانت الثقة صعبة. لا تتبنى طبيعتنا الإنسانية فضيلة التواضع، إنها تسير بعكس كل غريزة للبقاء لدينا. يتطلب التواضع أكثر من وجه لطيف: إنه يتطلب الاستعداد لأن نكون معرضين للإساءة . إن جميع نقاط الانطلاق نحو السلام والتواضع تكون صعبة للفهم والقبول.

يوجد الشيء الكثير لكي يكتب حول التواضع ودوره في بناء الثقة، ولكن لا يوجد بديل لممارسته ببساطه كل يوم، لأنه من خلال ممارستنا للواقع بأنفسنا مع الآخرين والثقة بهم، نكتشف البركات المخفية، ومن خلال تقبلنا لعدم أهميتنا، نتعلم الترحيب بالسلام الذي يجلبه تخلينا عن الشعور بالأهمية الذاتية لأنفسنا، وكما يقول مالكولم ماكريدج:

"إن القوة أعظم فخ وهي مرعبة في جميع مظاهرها: الصوت الذي يرتفع لتوجيه الأمر، واليد الممدودة لكي تقبض، والعيون الملتهبة بالشهوة. إنه من

الأفضل أن نتخلى عن المال، **لا يوجد سلام على الإطلاق إلا بالنظر إلى الأبدية عبر الزمان**، كما لو كان المرء ينظر إلى منظر بعيد من أعلى الجبل."

لن نجد السلام الدائم ما لم نتعلم أن نثق، ولن نتعلم أن نثق بالكامل حتى نكتشف التواضع. ورغم أننا سنكون حمقى إذا توقعنا ظهور هذه الصفات فينا بين ليلة وضحاها، فإنها أدوات قوية للسلام وتستحق الجهد الذي تتطلبه لكي نتمكن منها.

الكاتب ديل اوكرمان يمكن أن يكون لديه كل الحق في الاحتجاج على الحظ التي أعطته إياه الحياة. إن السرطان الذي كان يكافحه لعدة سنوات يمكن أن يتغلب عليه في أي وقت. ولكنه في سلام غير متجذر، رغم حقيقة أنه سيموت سريعاً. ويبقى حبه للحياة غير منقوص. سيموت بالتأكيد وهو يقاتل، ولكن قربه من الموت لا يجعله عصابياً أو غير متوازن، بل يجد أن ثقته بقوة أعلى تعطيه القوة بصورة مستمرة.

"في الخامس من تشرين الثاني عام ١٩٩٦ اكتشفت وجود ورم بطول ثلاثة ونصف بوصة على رئتي اليسرى، وأظهرت الفحوصات التالية بأن السرطان قد انتشر إلى الكبد والفخذ الأيمن، وإلى مكانين منفصلين في العمود الفقري. وعلمت بأنني سأعيش من شهرين إلى ستة أشهر. إن النظرة إلى الحياة عندما تكتشف أن لديك شهرين فقط لتعيش تكون مدهشة. ويصبح كل يوم وكل علاقة حميمة ثمينة أكثر من قبل. وكنت كل صباح أحسب أيام الشهر، وأقول إن الله قد أعطاني يوماً جديداً. وبصورة جديدة نظرت إلى عائلتي ومنزلي وجمال الطبيعة، وكنت اعرف بأن وقتي في رؤية كل هذا سينتهي قريباً جداً.

عندما توفيت أختي جين بسبب إصابتها بنوع مميت من السرطان وهي في الرابعة عشرة من عمرها، رأت أمي في هذا إرادة الله. اختار الله أن يأخذها. ومن نحن كمخلوقات بشرية لنتحدى ذلك؟ ويعتقد بعض الناس أن هذا النوع من التفكير يعطيهم الراحة، ولكني أرى مثل هذه الأشياء بشكل مختلف. لا أعتقد بأن الله يرسل السرطان أو أمراض القلب. لا أعتقد أنها إرادة الله عندما ينحرف السائق ويصطدم بسيارة أخرى ويقتل عدداً من الأشخاص. ويوجد أشياء كثيرة محزنة في العالم لا يريدها الله ولا يقصدها.

وبعد ست دورات من العلاج الكيماوي ونظام خاص من التغذية الكاملة والكثير من الصلوات من قبل عدد كبير من الأصدقاء، أظهرت الفحوصات بأن الورم على رئتي قد تقلص إلى أقل من ربع حجمه السابق، وأشار الطبيبان اللذان أشرفا على العلاج إلى أن هذا معجزة.

رغم حياتي العادية، فلقد انشغلت كثيرا في صنع السلام، وخلال الأشهر الماضية علقت في ذهني مجموعة من الآيات الخاصة بالسلام في الإنجيل، وتذكرت هذه الآيات بينما كان يتم نقلي في قسم الأشعة لإجراء الفحوصات. وكانت هذه الآيات من رسالة القديس بولس إلى أهل فيلبي٤: ٧ ، وهي تقول:

"سلام الله الذي يفوق كل عقل يحفظ قلوبكم وأفكاركم في المسيح يسوع".

هذا السلام كما فهمه القديس بولس هو أكثر من سكينة للروح. إنه صحة الحياة، والعلاقات التي تقف بثبات أمام كل ما يحاول أن يجزأنا ويحطمنا. إنه هدية نستطيع حملها حتى عندما نسير في أعماق الظلام."

٧

دعوة للتوبة

"إن إلقاء السلاح والاستسلام والشعور بالندم،

والإدراك بأنك على خطأ، والاستعداد لبدء حياة جديدة،

كلها الطريقة الوحيدة للخروج من الحفرة."

س. س. لويس

إن السلام كما كانت تفهمه "سو" عام ١٩٧٢، كان يعني نهاية الحرب في فيتنام. وهي تقول: "عندما ترعرعت في الستينيات لم أكن أفكر بأن السلام أعمق من ذلك". ولدت هذه المرأة في عائلة متوسطة الحال في الولايات المتحدة، وتوفر لها كل ما كانت تطلبه من الأشياء المادية. ولكنها كانت تشعر باليأس في نهاية سنوات مراهقتها، تتوق إلى الكمال والسلام في حياتها، ولكنها كانت مثقلة بكراهية النفس والشعور بالذنب والاستنزاف، بحيث كانت تشعر أن حياتها قد انتهت.

كانت واحدة من أربعة أطفال لأب أدمن شرب الخمر واتصف بالعنف: "كنت جزءاً من عائلة نموذجية – ومن الطبقة المتوسطة، وغير سعيدة تماماً. ومنذ أن بلغت سن المراهقة بدأت ألهو بالجنس. وعرفت أن أحد الشبان في حارتنا كان مغرماً بي، فحاولت السيطرة عليه من خلال الاستعانة بمفاتني، وقدت الكثير من الفتيان والرجال في هذا الطريق دون أن أنوي أن أتعاطى

الجنس معهم. أردت فقط أن أشعر بالسيطرة عليهم.

وفي عام ١٩٦٨ عندما كنت في الرابعة عشرة من عمري، وجدت أختي مع زوجها مقتولين في شقتهما. وانتهت حياة هذه الأخت الجميلة التي كانت تبلغ ٢٢ عاما، وكانت قد تزوجت منذ ثلاثة أشهر فقط من رجل يعمل في البحرية. هل كان موتها ناتجاً عن مشاجرة ؟ لم يكن هناك أحد لنعرف منه ماذا جرى عندما دخلت مع أختي الأخرى في شقتهما، ولم يكن هناك سوى الجثتان ومسدس.

أصابت هذه الحادثة حياتي كلها بالارتباك الكامل. وامتلأت بالغضب والكراهية، خصوصا نحو والدي. وبدأت أتناول المنشطات والمخدرات، وأسكر كل نهاية أسبوع مع رجل مختلف. وعندما كنت في السابعة عشرة من عمري، كنت قد مارست كل الأعمال الجنسية تقريباً. ومن سخرية القدر أني كنت مع عدد من أصدقائي جزءاً من حركة الحب والسلام، وكانت أحدى الحركات القوية التي تقف ضد الحرب في فيتنام. وكان اتباع هذه الحركة يحملون الكثير من القيم المثالية في أوائل السبعينات. ولكن الأنانية الكبيرة لدى أفرادها والحياة الجنسية الغريبة التي عاشوها كانت عكس هذه القيم المثالية.

كافحت خلال عشر سنوات لكي أجد السلام، ورغم قتالي الشديد والمساعدة الكبيرة من العديد من الناس، فاني لم أتخلص من السجن المظلم الذي بنيته لنفسي.

وفجأة ظننت بأنني أستطيع أن أجد الحرية من خلال الكشف عن الشخصية التعيسة التي كنت أمثلها. كان علي أن أجد الشخص الذي

أستطيع أن أثـق بـه لكـي أبـوح إليـه بأسراري الأكـثر ظلاماً. كـان علـي أن أبحـث لكي أتمكن من العثور علـى السـلام الـذي كنـت أنشـده منـذ زمـن طويـل.

وفي الأيـام التاليـة كـانت حيـاتي تمـر أمـام عيـني، وكـأنني أرى كـل لمسـة ونظـرة وكلمـة وفكـرة أنغمسـت فيـها، وكـل شـخص عملـت علـى ضلالـه وإيذائـه بإرادتي. أسـتطعت أن أظـهر بفـرح وألم معـاً، أسـراري الأكـثر سـواداً إلى إحـدى الصديقـات اللواتـي وثقـت بـهن. كـان علـي العـودة إلى الـوراء مـرات كثـيرة قبـل أن أتمكن من إنـهاء كل شـيء. وحـل السـلام في قلـبي بعـد هـذا التطـهير. ومـرت الأيـام وشعرت بأني حـرة كطفلـة مـرة ثانيـة.

وأبلغ الآن الأربعين من عمري ومتزوجة ولي أطفال. ولكنني أشعر بأنني أصغر كثيراً، كما لو كنت في سن التاسعة عشرة. ولو سألني شخص ما اليوم ما هو السلام، فأنني أستطيع تقديم جواب أفضل."

كلنـا يريـد أن يبـدأ ثانيـة، وأن يتغـير – ليسـت هـذه هـي المشـكلة. المشـكلة هـي: كيـف؟ كيـف يمكـن أن تكـون متواضعـاً ولطيفـاً ورقيقـاً ونادمـاً؟ **أن تقـر بمساوئك وأن تشعر بالأسـف حيالهـا أي أن تتـوب؟** ومـهما بـدا الأمـر قاسـياً، فانـه لا سـلام بـدون ذلـك: فعندمـا يكـون الشـخص مسؤولا عـن الأشـياء الخاطئـة الـتي فعلـها في الحيـاة ويتـوب، فـان قلـب الحجـر يتحـول إلى قلـب مـن اللحـم، وتتحـول كـل فكـرة وعاطفـة، ويتغـير الشـخص بصـورة كاملـة.

مـن السـهل إصـلاح الخطـأ عـن طريـق الاعتـذار، أو أن تغمـض عينيـك وتتغاضى عـن الأشياء. يفعـل النـاس هـذا كـل يـوم. وبينمـا يمكـن لهـذه الإجـراءات

أن تجلب الهدوء آنيا لضمير متعب، فإنها لا تجلب السلام الدائم. **ولا يجلب السلام الدائم الطريقة التقليدية لعلماء النفس أو الأطباء النفسيين الذين يقولون للناس: "ان تصرفاتكم وسلوككم طبيعياً تماماً. لا داعي للشعور بالذنب! لم تفعلوا شيئا خاطئا!"** <u>لا نجد السلام الدائم بإنكار عيوبنا ولكن بالنظر إليها بأمانة واستقامة.</u>

لا تعني التوبة تعذيب النفس، ولا التفكير المركز على الذات أو الاكتئاب. ولكنها إذا كانت حقيقية فإنها ستكون مؤلمة. بحث جيرالد عن راحة البال سنة تلو الأخرى دون نجاح. وبالرغم من أنه شعر بالأسف الكبير على مساوئه الماضية، إلا أنه لم يواجهها أبداً باستقامة. كان يعمل بجد، وإخلاص ويمكن الاعتماد عليه، ولكن كان في داخله رجل معذب. وخلف واجهة التزامه الثابت بعائلته وكنيسته، كان يحمل معه سرا عميقا عن علاقة له كان قد أقامها في مدينة نائية، وكانت ثمرتها طفلاً.

ووجد جيرالد نفسه خلال لحظة من لحظات الازمة، عندما كان يقترب من منتصف العمر، يواجه المجموع الحقيقي لحياته حتى تلك اللحظة. وعرف أنه لا توجد طريقة للتعويض أو التخلص من الذي كان قد عمله. وعندما شعر بثقل مؤلم نتيجة لأعماله السيئة امتلأ بالندم، وذهب واعتذر لكل شخص تخلى عنه أو خانه. واستطاع أخيراً كما يقول أن يشعر بأنه أصبح سليماً نظيفاً. وبغض النظر عن حساباته الدراماتيكية، فإن جيرالد يقول بأن هذه التجربة والسلام الذي جلبته له، لم تكن عملية واحدة، وإنما تجربة ما زالت تستمر إلى هذا اليوم كما يقول: "فكرت في الكثير من المرات أنني قد

وجدت السلام أخيراً، ولكنني كنت أدرك بأن الذي حدث هو خطوة على الطريق، وعلي أن أتقدم بصورة أعمق. وربما يستمر هذا، ولكنني سأتمكن من خلال البحث الأمين عن السلام من الوصول إليه."

وتظهر أهمية التوبة أيضاً في قصة عمتي "ايمي مارجريت"، وهى امرأة ربما تكون قد خاضت معركة قاسية في بحثها عن سلام القلب أكثر من أي شخص آخر أعرفه. إن ايمي مارجريت التي بلغت أواخر الثمانيات من عمرها الآن ، قد أعجبت بهانز عندما قابلته لأول مرة - مثلها مثل أي واحدة عرفته -- وهو الرجل الذي أصبح زوجها فيما بعد، لذكائه وحماسته وشخصيته القوية. ولكن الذي بدأ كزواج سعيد سرعان ما تحول إلى كابوس. كانت الأشياء تبدو رائعة في مظهرها الخارجي، فقد انجبا الأطفال الواحد تلو الآخر، وبدت العائلة كأنها تستمتع بحياة سليمة متناغمة. ولكن هانز بدأ يظهر في داخله جانبا آخر. كانت لديه رغبة في الحصول على القوة الشخصية لا يمكن إشباعها، وكان يريد الحصول عليها مهما كلف الأمر للآخرين أو لنفسه. انزعجت ايمي مارجريت من أسلوب زوجها التسلطي في بداية الامر، ولكن هذا لم يدم وقتا طويلا. ذلك أن انتقاد هانز كان يعني أن تعرض نفسها لسوط لسانه الساخر. وكان أسهل عليها بكثير وبدون إزعاج وبأسلوب أكثر سهولة أن تقبله كما هو. ولم يكن هذا يسبب لها السرور: فقد كان هانز يسيء الثقة تقريبا بكل شخص عاش أو عمل معه، وكان هناك عدد من الناس يكرههم أكثر من كرهه لعائلة زوجته.

وكان الاعتماد العاطفي لايمي مارجريت على زوجها عظيما بحيث أنه

أعماها عن الجروح العميقة التي سبباها للآخرين. فقد تمكنا من تحطيم أي شخص كان يعترض طريقهما أو يتجرأ على معارضتهما. فأصبحت ايمي بالتالي شريكة له وترضي طموحاته. وبقيت تدافع عن هانز بشكل غريب – حتى بعد اكتشافها لعلاقة سرية له مع سكرتيرته استمرت لعدة سنوات، وذلك بعد وفاته المأساوية في حادث جوي فوق فرنسا.

مر بعض الوقت قبل أن تبدأ ايمي مارجريت اكتشاف أنها كانت تعيش حياة كاذبة، وأن كل ما تعلقت به – من شهرة وقوة وإعجاب، ومكانة اجتماعية مرموقة – لم يكسبها السعادة الحقيقية، وإنما أدى إلى تدميرها شخصيا. ومرت خلال الأشهر التالية بفترة شاقة ومؤلمة، أثقلتها بالعواطف المتنازعة والأكاذيب المكبوتة، التي أثقلتها لعشرات السنين. كانت معركة طويلة صعبة، ولكنها بذلت الجهد للتعرف على ذنبها في دعم تخطيط زوجها، وعملت على إصلاح الأشياء.

مرت ٢٥ عاما منذ ذلك الوقت، ولا شك أن عمتي كانت في بحثها عن السلام قد تحملت الكثير من الألم. لقد فقدت هانز بدون أن تتصالح معه، وسببت المرارة والألم للعديد من الأصدقاء القدماء الذين وقفوا إلى جانب زوجها، وقطعت علاقاتها مع العديد من أولادها خلال تلك الفترة . ولكنها كما تؤكد لي، بأنها عندما قطعت روابطها مع زوجها وتابت، وجدت الكمال والشفاء اللذين لم تعرفهما من قبل. وقد كتبت لي قبل بضع سنوات تقول: "لقد شعرت بحرية وسلام كبيرين ولا زلت أحصل على المزيد، وهذا يفوق ما كنت أتوقعه وأرجوه بكثير".

٨

ماذا تريد في الحقيقة؟

"قبل أن يصبح المرء ملتزماً

يعاني من التردد والتراجع

وعدم الفاعلية."

و. هـ. هنري

كان لدى" آشلي ميني" مظهراً جميلا تميز به عن أصدقائه منذ أيام شبابه في مدينة ملبورن. وقد ساعده هذا المظهر عندما كان في التاسعة عشرة على الدخول إلى عالم الأزياء في أوروبا. واستطاع من خلال ذلك أن يتقدم بثبات بين الآخرين ووصل إلى مسارح باريس وميلانو ولندن.

كان شاباً صغيراً، ولكنه نجح نجاحاً باهراً، وهو يقول :" وقعت عقداً للعمل مع "إليت" أفضل وكالة في عالم الأزياء. وكنت أقدم نماذج في عروض أزياء لأمثال جيورجي أرماني. وألصقت صورتي على لوحات الإعلانات." كانت الأمور تسير بشكل رائع لشاب كان قبل فترة قصيرة من هواة شاطئ البحر وسيئا من الطراز الأول. وهو يمتطي الآن قمة موجة حقيقية، ويريد أن يركب هذه الموجة إلى المدى الذي ستأخذه إليها.

"اكتشفت في الحال أن تقديم نماذج الازياء، ليس عملاً، وإنما هو نمط

حياة يصبح جزءاً منك. وفتح أمامي بصورة مفاجئة عالماً جديداً بالكامل، فكانت هناك النوادي الليلية التي أرتادها، وأفردت طاولات جانباً لعارضي الأزياء فقط. وكانت المشروبات الكحولية والمخدرات والجنس تقدم لهم بصورة مجانية، وكان هناك كل شيء يمكن أن أحصل عليه، ومن كنت أنا حتى أرفض؟

ووجدت نفسي مرة في ميلانو، ولم يكن معي ما يكفي من النقود، ولم أتمكن من دفع أجرة الفندق. ولم يمثل هذا مشكلة بالنسبة لي، فقد قمت بالرقص من أجل الحصول على عدد من الدولارات في إحدى الملاهي الليلية. كان يجري اقتيادي بالسيارة إلى ملهى ليلي، وأمضي الأمسية في السكر ومغازلة أكبر عدد من النساء، ثم أعود بالسيارة إلى البيت. وكانت هذه طريقة الملهى الليلي في جذب النساء، وكان هذا مجزياً من الناحية المادية.

وفي الكثير من الأحيان كنت أشارك في حفلات تتعكر الأمور في نهايتها، وكنت أجد نفسي وبدون أن أعرف كيف وصلت، في بيت أحد المشاهير أو في بيت آخر، أشم الكوكايين طوال عطلة نهاية الأسبوع. وكنت دائماً مستعداً لتجربة كل شيء حتى الهيروين.

وكانت أطمح إلى الشهرة والقوة والثروة والسمعة الجيدة. كان هذا هو الإتجاه الذي أخذتني فيه موهبتي. وقدمت عرضاً خاصاً بي سارت الأمور فيه بشكل جيد. ونلت شعبية كبيرة، واستمتع الناس بكوني معهم. وهكذا عشت، وهكذا مكثت في لندن وباريس وميلانو.

وفي أواخر الثمانيات نزلت إلى صناعة الأزياء شركة العصر الجديد.

وأصبحت الملابس البيضاء شائعة،حيث سعى المصممون إلى بث عملهم بمعنى من الروحانية. وأبتدأت أرتدي الزي الأرجواني، وأمضيت وقتاً طويلاً أحاول دراسة النجوم والفلك. قرأت الأدب البوذي وكل الكتابات المعروفة عن الأحلام وغيرها.

في ٢٠ آب ١٩٨٩ غرقت سفينة الركاب مارشيونس في نهر التايمز، وكانت مليئة بعارضي الأزياء ووكلاء أعمالهم. وكانوا منطلقين لقضاء ليلة في الاحتفال على النهر، عندما اصطدمت سفينتهم بقارب أكبر منها، وغرق سبعة وخمسون شخصاً، والعديد منهم كان يتناول المخدرات، كما كان الحال في مثل تلك الحفلات. أحد الأشخاص الذين ماتوا كان صديقاً مقرباً جداً. وبعد هذه الكارثة اشتد بحثي عن معنى الحياة، ولم تظهر لي الأشياء بصورة حقيقية ، كان السكر وال L.S.D. والكوكايين الأشياء الوحيدة التي كانت تعني الكثير بالنسبة لي. وتوفي بعد ذلك بشهرين، أفضل صديق لي في استراليا بنوبة من الربو،فخطر على بالي الكثير من الأسئلة التي لم أجد أي إجابة لها.

في اليوم الذي مات فيه هذا الصديق تناولت طعام الغداء مع عارضة تدعى سيس. تقابلنا في المنتزه المقابل لمطعم مشهور، إذ لم يكن باستطاعة المرء تدخين الحشيش داخل المطعم. لذلك كنت أذهب مع أصدقائي إلى المنتزه، ونستمتع بتدخين الحشيش قبل تناول العشاء، وكنا نسمي ذلك تناول الحشيش على الحشيش. وكان هذا هو المكان الذي قابلت صديقتي سيس فيه.

بدأت اللقاءات الغرامية بيننا، ثم انتقلنا إلى باريس مع بعض وكلانا للعمل في عرض الأزياء. وعمل كلانا في الرسم، وكسبنا من عرض الأزياء المال

الكافي، فعشنا في شقة جميلة في حي مونمارتر، وهو حي معروف بصورته المميزة، والعناصر الصوفية الممزوجة فيه بمقدار جيد. وهناك بدأنا نقع في الحب، كما أعتقد.

وعندما أخذت علاقتنا تصبح أكثر عمقاً، أخذت أقلل من تناول المخدرات، وأصبح بحثي عن السلام يشتد حدة. وكنت أقرأ الأساطير وأحاول أن أقوم بدور الوسيط الروحي. ثم اقترح علي صديق من شركة العصر الجديد، أن أتعرف على الأديان الرئيسة أيضاً. لم أذهب إلى الكنيسة عندما كنت طفلاً، ولهذا لم أعرف العهد القديم ولا العهد الجديد، لم أكن أعرف الشيء الكثير عن الله بصرف النظر عن معرفة يسوع. ولكن صديقي أشترى لي إنجيلاً وجلست إلى الطاولة وفتحته لأول مرة في حياتي.

ولقد أحدث ما قرأته في ذلك اليوم تغييراً كلياً في حياتي، **فقد سيطر عليَّ شعور بأن الله كان حقيقياً، وأنه يهتم بي**. شعرت بذلك من كل أعماقي، وأصبت بالدهشة الكاملة. وكان أول رد فعل لي – وهذا يظهر أين كان شعوري وقلبي حينذاك : إذا استطعت أن أضع مثل هذا الشعور "قبعة" سوف أصبح مليونيرا غداً. وفكرت بعقلية المخدرات، فهذا الشعور أفضل من أي نشوة، ومن أي حامض أو كوكايين سبق لي أن تناولته. هذا الشعور بالمحبة والسلام كان شعوراً جديداً وغريباً عني. عرفت بأن هذا ما كنت أبحث عنه، ويبحث عنه الآخرون أيضاً. وفي بحر الأيام التالية أنتظرت أن يتلاشى هذا الشعور. ولكنه لم يذهب، بل استمر في العودة وفي أوقات وأماكن غريبة جداً. كنت أستقل المترو في باريس متوجها إلى عرض أزياء، وحقيبة العرض تحت

ذراعي، وكان هذا الشعور بالدفء والمحبة يأتيني ثانية.. وكان يدفعني إلى البكاء في داخل عربة المترو أحياناً. هنا كنت أحاول أن أكون عارضاً للأزياء هادئاً وصلباً وأنيقاً.

لم تعرف سيبس تماماً ماذا تستنتج من كل هذا في البداية. شاهدتني أحاول الإهتمام بالفلك وغيره من الأمور، وافترضت بأن هذه مرحلة عابرة، ولكنها بقيت متوجسة عندما لاحظت أن لي أصدقاء مسيحيين، أذهب معهم إلى الكنيسة – وهي المكان الذي جعلني أشعر كالحجر في البداية، لأنني كنت غريباً بصورة كلية عن الجماعة التي تحيط بي، ولهذا كنت ضعيفاً. ولكن التغير الذي كان يحدث داخلي لم يكن مجرد مرحلة عابرة. وعندما أدركت سيبس هذا، سيطر عليها الفضول في النهاية، وكان عليها أن تكتشف الله بنفسها. ونجحت في ذلك بشكل جيد.

إن معرفة أن الله حقيقي، أعطى لحياتي هدفاً وغاية. ولم يحدث ذلك بين ليلة وضحاها، ولكن البذرة زرعت وكان التحول حتمياً. واتضح لي بأن حياتي كانت مبنية على الأنانية المتمحورة على الذات. وكان علي أن أنتزع كل هذا. وكانت علاقتي مع سيبس بحاجة إلى تغييرات جذرية أيضاً. واخترنا لحسن الحظ أن نبقى معاً وأن نبدأ بالنظر إلى بعضنا بعيون جديدة. أردنا أن يكون حبنا مستمراً وبدون قيود. توقفنا عن ممارسة الجنس والمشاجرة، واجتزنا مرحلة مؤلمة من أجل ترك المخدرات. وكانت هذه المرحلة أبعد ما تكون عن السهولة. كنا نشعر بالراحة بعلاقتنا غير الوظيفية. ووجدنا الآن فجأة علاقة حقيقية. ومما يثير الدهشة أننا قد تمكننا من إعادة بناء

علاقاتنا على أرضية جديدة. وتزوجنا بعد سنتين ويبلغ ابننا اليوم الشهر الثامن عشر من عمره.

عندما قررت أن أعيش مع الله، عرفت بأن ذلك يجب أن يكون بصورة مستمرة ودائمة. لم أعرف في ذلك الوقت ماذا ستكون نتائج هذا القرار. ولازلت حتى الآن أتعلم، وتتعلم سيبس معي بصورة جيدة. وأنهيت مهنتي في عرض الأزياء ، فقد عرفت بأنني لن أتمكن من الاستمرار في ذلك النمط من الحياة، وأكون صادقاً مع ما كنت أشعر به في داخلي. تركت تلك المهنة وأمضيت بضعة سنوات وأنا أحاول إيجاد مهنة أستطيع أن أعطيها نفسي بصورة كاملة.

كان ثمة شيء واضح: **لا نستطيع أن نعيش الحياة بأنانية. عليك أن تخرج من عالمك الصغير وأن تعيش من أجل الآخرين.** أمضيت السنوات العديدة وأنا أدمر حياتي وحياة الآخرين من خلال أنانيتي. كان علي أن أسأل نفسي باستمرار: ماذا يمكن أن عمل ؟ كيف أستطيع أن أساعد ؟ لا أستطيع الآن تغيير الماضي، ولكن أستطيع قضاء بقية حياتي في محاولة لعمل شيء للآخرين. أنا الآن أعمل في جمعية خيرية تحاول أن تدخل البهجة في حياة الأطفال المصابين بالإيدز، أو الذين يتأثرون مباشرة به. إن قضاء ثلاث أو أربع ساعات أسبوعياً مع كل طفل من الأطفال الخمسة الذين أزورهم، يحدث فرقاً كبيراً في حياتهم وحياتي.

مات جشوا قبل فترة قصيرة وهو في سن الرابعة، ولد بمرض الإيدز، وأعتدت أن أحمله بين ذراعي، وكنا نرقص حول غرفة معيشة أمه على أنغام

الموسيقى. ضحكنا كثيراً مع بعض. وكنت في أحد المرات أرقص على أغنية لبوب مارلي، فاسترجعت ذكرى حادثة وقعت لي في الماضي: كان الوقت هو موعد الإغلاق في نادي ليلي في ميلانو، وكنت هنالك محاطاً بالنساء. كنت نجم العرض كالعادة،أشرب وأرقص على أنغام نفس الأغنية. ما أكبر الشبه بين الحادثتين . أدركت في تلك اللحظة، **أن الله يحرك الجبال فعلاً** . هذه هي الجبال. إن تحريكها لهو معجزة أعظم بكثير من تحريك أي جبل مادي."

لقد مر آشلي وسيبس بتغيرات دراماتيكية في حياتهما خلال بحثهما عن السلام ومعنى الحياة، وحدث التغيير لأنهما أرادا ذلك. إن الاختيارات تواجه كل واحد منا باستمرار، ويسهل القيام ببعض هذه الخيارات، بينما تتطلب خيارات أخرى تفكيراً جيداً. وكل خيار فيه عنصر من المخاطرة: ويطرح دائما السؤال: "ماذا لو..؟" وعند الحديث مع الأشخاص الذين أحتوى هذا الكتاب على آرائهم السديدة، يظهر الخيط المشترك، أي دور الخيار والإرادة الحرة في بحثهم عن السلام.

***

إن فكتور فرانكل الذي نجا من "الكارثة" طبيب نفساني مشهور، وقد كتب يقول : **"إن السلام يعني الحرية في مواجهة ثلاثة أشياء: غرائزنا وصفاتنا الموروثة والأشياء المحيطة بنا."**

يملك الإنسان بصورة مؤكدة غرائز، ولكن يجب أن لا تستحوذ هذه الغرائز

عليه. وأظهرت الأبحاث في مجال الوراثة كيف تكون درجة الحرية الإنسانية عالية في مواجهة الميول الوراثية. ونحن نعرف أن البيئة لا تصنع الإنسان ويعتمد كل شيء على ما يفعله الإنسان بها، وموقفه حيالها.

فالإنسان ليس مجرد نتاج الوراثة والبيئة، بل هناك عنصر آخر: وهو القرار الشخصي. فالإنسان في النهاية يقرر لنفسه! ويجب أن يركز التعليم في الدرجة الأولى على تنمية المقدرة على اتخاذ القرار.

ويقول فرانكل: "إن القليلين منا فقط، يتخذون خيارات في حياتهم بدرجة كبيرة من التصميم. وإذا كنا نتراجع عن خياراتنا ونختار الحلول الوسط، فسنفقد المبدأ الأساسي الذي يساعدنا في الصمود أمام قراراتنا. وبسبب هذا فإننا نبقى في حالة مستمرة من الحزن. ونتمسك في بعض الأحيان بمواقف دون دراسة جيدة لما يمكن أن يصادفنا من مشكلات في المستقبل. وقد نكون في أحيان أخرى نملك ما يكفي من القدرة ولكننا ننهزم. ونظهر أحياناً عدم التركيز وعدم وجود رأي واضح محدد على الاطلاق، ونتمسك في اليوم التالي بشدة وعناد بفكرة معينة ونتعصب لها . ويقول الشاعر الإنجليزي يتيس: "إن أفضل الناس ينقصهم الإيمان وأسوأ الناس يتميزون بالحدة العاطفية". ويمكن إرجاع كل هذه الأعراض في النهاية، إلى خوفنا من المسؤولية، وعدم القدرة على التصميم الذي ينتج عنه.

لا زلت أتذكر بوضوح أن شجاعتي كانت تحت الاختبار للمرة الأولى، وأنا طالب في الربعة عشرة من عمري في مدرسة في نيويورك. فقد طلب مني أن أتلو عن ظهر قلب نشيد الولاء لعلم الولايات المتحدة كل يوم، ووجدت في هذه

الممارسة الغريبة والوطنية التي لا تحتمل المساءلة، الإزعاج الكبير، لأني كنت مهاجراً. وكان كل طالب يأخذ دوره في كل صباح. وفي اليوم الذي جاء فيه دوري، نهضت أمام الصف وأخبرتهم بأنني لا أستطيع أن أفعل ذلك. وقلت لهم إن ولائي الكبير هو لله، وليس لقطعة من القماش.

وأحدث كلامي هذا الذهول في داخل الصف، وكنت تستطيع سماع صوت الدبوس يسقط على الأرض في تلك اللحظة. فلم يكن مثل هذا العمل معقولاً ومقبولاً ! وخاصة في تلك الفترة التي تمثل قمة الحرب الباردة والعصر الماركسي، فاذا خرج أحد عن السلوك العام، كان يشك فيه تلقائياً بأنه عميل شيوعي وخائن. وكانت جلسات محاكمة لجنة النشاطات المعادية للولايات المتحدة في واشنطن، سيئة السمعة وفي أوج اشتدادها. وأرسلت في صباح ذلك اليوم إلى مدير المدرسة ووضعت أمام جميع أعضاء الهيئة التدريسية لكي أشرح لهم موقفي. ورغم شعورهم بالصدمة، فقد ظهر شيء من التفهم بعدما أوضحت موقفي، فأنا لم أقصد عدم الاحترام، ولكني أعتقدت أن عمل الشيء الصحيح كان أهم من عمل الشيء الوطني".

وكان والداي في البيت يشعران بالدهشة رغم موقفهما الداعم لي، وكان الأمر بالنسبة لأبي بسيطاً: إذا لم تتبع ضميرك فانك لن تجد السلام أبداً. وإذا كان عمل هذا يعني خلق المشاكل، فليكن الأمر كذلك. وكان هذا دائماً أفضل من الجلوس والتظاهر بأن كل شيء على ما يرام."

❊ ❊ ❊

كتب لي مؤخرا "جون ونتر"، وهو الآن رجل إنجليزي مسن، أعرفه منذ أيام الشباب، وهو يقول في رسالته: بأن أكثر فصول حياته نجاحاً كانت تلك التي دخل فيها بقرار صارم، والتزم بقراره مهما كلف الأمر.

" تركت المدرسة في سن السادسة عشرة، وبدأت العمل في مختبر شركة تصنع أنابيب رصاصية ودهانات، ثم ذهبت إلى لندن للدراسة في المساء من أجل الحصول على شهادة في العلوم. وعندما كنت في التاسعة عشرة، كان علي الدخول في الخدمة العسكرية. لم أكن راغباً في الموافقة على أهوال الحرب، ولهذا فقد قررت أن أسجل اسمي في قائمة المعترضين أصحاب الضمائر. وعندما أخبرت رئيسي في العمل، أخبرني بأن المصنع الذي أعمل فيه ينتج الآن الرصاص للبنادق بدلاً من الأنابيت والدهانات، وأن موقفي لن يتماشى مع موقف الشركة. أصبت بالصدمة، ولا أزال أتذكر نهاية الأسبوع تلك مثل اليوم، أتذكر الساعات التي أمضيتها وأنا أحاول أن اقرر ماذا أفعل. وللأمانة لم أستطع الاستمرار في عملي، وكان التخلي عن العمل في تلك الفترة صعباً للغاية.

وكان لي صديق في نفس الفترة يعاني من حالات نفسية مشابهة، ولكنه لم يجد الأساس المتين الذي يبني عليه رفضه الاشتراك في الحرب، ولهذا فقد غير رأيه لاحقا وانضم إلى سلاح الجو الملكي.

وفي نهاية الأسبوع تلك، كان عليَّ أن أختار بين أن أكون صادقاً لما آمنت به حول الحرب وأن أتصرف على أساس ذلك، أو أن أستمر في الحياة كالمعتاد. كان القرار حاسماً بالنسبة لي. فقد كلفني الكثير من ساعات القلق وعدم الارتياح، ولكني عرفت أخيراً ماذا يجب أن أفعل: أن أترك عملي.

يبدو ذلك الأمر شيئاً صغيراً جداً الآن، ولكنه كان شيئاً هاماً جداً لي في ذلك الوقت. ربما كانت هذه هي المرة الأولى التي أختار فيها بين رغباتي، وبين ما كان يمليه علي ضميري. أستطيع الآن بعد ٥٨ عاماً أن أقول إنني اختبرت في تلك اللحظة شيئاً من السلام الحقيقي الذي لا يهتز. كان علي أن أفكر كثيراً قبل اتخاذ خطوة لم أكن أريد اتخاذها في البداية. إن كل مرة أتبع فيها ضميري، يقودني هذا إلى السلام الداخلي.

ولقد جعلتني الحياة من ناحية أخرى، أن أدرك أن سماع الدعوة وعدم اتباعها، يترك أثراً في النفس، **وربما لن يتمكن المرء من سماع الدعوة بوضوح في المرة الثانية – أو قد لا تأتي مرة ثانية أبداً.**

بعد أن تركت عملي بقيت عاطلاً عن العمل عدة أشهر. بحثت عن عمل لا علاقة له بالحرب، ولكني لم أجد، وخاصة في المجال الذي تدربت فيه. أن يكون المرء عاطلاً عن العمل أمر فظيع. ولم أتمكن من إيجاد عمل في مكتب أو حانوت. ولكني رغم ذلك لا أستطيع أن أنكر بأني شعرت في ذلك الوقت بالسلام إزاء ما صنعت."

❊ ❊ ❊

ويعرف الجميع منا أناساً بعكس جون، لا يستطيعون إيجاد السلام في داخلهم، لأنهم لا يستطيعون التمسك بقرار. إنهم يجتازون الحياة مثل قارب شراعي خفيف، ينقلب لأدنى ريح، ويصلون إلى الأهداف التي حددوها

لأنفسهم بأعظم المصاعب، ولا يصل بعضهم إليها على الإطلاق. وتمضي السنين وهم يحاولون أن يقرروا ما يشغلون به أنفسهم في المرة القادمة. وقد أدى مثل هذا التردد المدمر في بعض الحالات التي أعرفها، إلى عدم الاتزان العاطفي وعدم الاستقرار العقلي.

يأتي السلام من خلال التصميم. إن الحياة مليئة بالتأثيرات الجيدة والسيئة، وهي تتنافس من أجل الحصول على انتباهنا. وإذا كنا نتردد في اختيار الطريق الذي نريده في حياتنا، فإننا نخاطر بكوننا نسير في إتجاهات غير محدودة. إن التصميم يعني القليل إذ لم نكن على استعداد لتقبل التغييرات والنتائج. ويشمل هذا الاستعداد كل جانب من حياتنا: **الاستعداد** لمسامحة الذي لا يسامح، أن تتذكر عند النسيان، وأن ننسى بدلاً من أن نتذكر. إنها تعني أن نحب حيث نواجه الكره، وأن نذهب حيث لا نحب أن نذهب، وأن ننتظر إذا تم نسياننا، أن ننظر إلى الأمام وليس إلى الخلف، أن ننسى الماضي ونلتفت بأمل صوب المستقبل. وفي النهاية إنها تعني الاستعداد لبذل كل شيء حتى حياتنا.

٩
اختر الحياة

"لا تكن لطيفا في تلك الليلة

اغضب، اغضب،

بسبب موت الضوء"

ديلان توماس

لم تكن "صوفي شول" امرأة عادية وهي في الحادية والعشرين من عمرها ، فقد قطع رأسها النازيون عام ١٩٤٣ لتورطها مع جماعة الوردة البيضاء، وهي جماعة طلابية مركزها ميونخ، كتبت منشورات ضد الحكومة وطبعتها ووزعتها. ولم تكن ناشطة عادية أيضاً. وفي كتابها مقاومة الوردة البيضاء تتذكر انجي شول المؤلفة وشقيقة صوفي شول، السلام الغريب الذي رافقها وأرشدها ومنحها القوة.

شعرت صوفي بالغضب الكبير عندما التقت بجماعة الوردة البيضاء في المرة الأولى، واكتشفت بأن أخاها هانز كان مؤسس الجماعة وأكثر المشتركين نشاطاً. وشعرت في نفس الوقت بأنه صوت من أجل الحق، وإذا تأخرت عن دعمه فإنه سيغرق في الحال بالضجيج المتنامي للدعاية والأكاذيب، ولذلك بذلت كل جهدها في مساعدته.

وآمن كل من هانز وصوفي بحماس كبير قبل عدة سنوات بالوعود التي أطلقها هتلر عن ألمانيا جديدة، وبعد أن عرفا بالعدد الكبير للضمائر والنفوس التي كانت تداس بسبب شهوة الديكتاتور الشيطانية للقوة، إزدادا تصميما على

السباحة ضد التيار. وبحلول نهاية عام ١٩٤٢، كان من الصعب إيجاد خلية من المعارضة أكثر حيوية أو تعرضاً للخطر من هذه الخلية. وتم التعرف في عام ١٩٤٣ على قادة الوردة البيضاء، وتم إلقاء القبض عليهم. وخلال خمسة أيام كان الأخوة شول والمقربين إليهم في عداد الموتى. وتبع ذلك إعدامات أخرى في نيسان وتموز من نفس العام.

ذهب الأخوان شول إلى نهاية الطريق بشجاعة وفخر. وعندما سمعت صوفي الحكم عليها – الموت بالمقصلة – كان رد فعلها هادئا: "في مثل هذا اليوم الجميل المشمس يجب أن أموت، ولكن ماذا يهم، إذا كان من خلالنا سوف يستيقظ الآلاف ويتحركون إلى العمل؟" لقد كان لديها سلام داخلي ينبع من الإيمان الذي لا يتزعزع بعدالة قضيتها.

ولا شك في أن صوفي مرت بلحظات من الخوف الشديد، ولكنها رفضت بقوة أن تتراجع عن قرارها بمحاربة "شرور هتلر". وإن مثل هذا الإيمان اليوم هو شيء نادر. فمن منا يهتم كثيراً بمعتقداته ويكون مستعداً للموت من أجلها؟ وهذه هي طبيعة الالتزام والسلام الذي ينتج عنه عند المواجهة والكفاح. وما لم نكن مقتنعين تماماً بعدالة ما نقوم به، فإننا لن نتمكن من مواجهة اختبار مشابه بمثل هذه الشجاعة. ولن نشعر بالرضى بان حياتنا كانت جديرة، حتى

لو انتهت بعد فترة قصيرة.

* * *

في كل يوم من حياتنا نواجه العديد من الأشياء الغامضة التي تستطيع بسهولة أن تزرع المخاوف في داخلنا. وبينما يخوض كل واحد منا صراعاً مع مجموعة المخاوف الخاصة به، يوجد خوف مشترك يثير تحدياً كبيراً للثقة الإنسانية والشعور بالأمن، إلا وهو خوفنا الجماعي من الموت.

إذا كان هناك من يتوجب عليه الخوف من الموت، فهذا الشخص هو "مارتن لوثر كينج". فقد كانت له شخصية كارزماتية جداً وينتقد بدون حرج. وعرّض حياته مرة تلو الأخرى للخطر من أجل المساواة ومحاربة العنصرية. ودفع في النهاية الثمن الأخير. ولا شك أن كنج كان كغيره يخاف من الموت. وفي المرات القليلة التي قابلته أو سمعته يتحدث فيها، كان يتمتع بهدوء وسلام عميقين. كان رجلاً لا يساوره شك في مهمته، ولا يشعر بالخوف من الثمن الذي سيدفعه من جراء تنفيذ هذه المهمة.

خاطب كينج تجمعاً من أجل الحقوق المدنية قائلا: "إن الإنسان الذي يخاف من الموت ليس حراً، وفي اللحظة التي تتغلبون فيها على الخوف من الموت تصبحون أحراراً". وحثه أصدقاؤه أن يقلل من المخاطر، ولكنه لم يكن يعرهم أي انتباه، ويقول: "لا أستطيع أن أقلق حول سلامتي، ولا أستطيع العيش وأنا خائف. علي أن أقوم بواجبي، وإذا كان ثمة خوف فلقد تغلبت عليه، وهو الخوف من الخوف. أقول لكم: **إن الإنسان إذا لم يجد شيئاً**

يموت من أجله فهو غير جدير بالحياة!".

* * *

في فيلم "خلاص شوزهانك" (١٩٩٤) يقضي آندي دوفرنز (تيم روبنز) عشرات السنين خلف قضبان السجن بسبب جريمتين لم يرتكبهما. ورغم أن وضعه كان لا أمل فيه، فانه لم يستسلم لليأس. وبدلاً من ذلك، شرع بمساعدة مطرقة صغيرة في عملية شاقة لحفر نفق خلال جدران السجن السميكة. وكانت القضية بالنسبة له كما يشرح لصديقه "مورجان فريمان" في غاية البساطة. كان له خياران فقط في الحياة: "الانشغال بالعيش أو الانشغال بالموت". إنه خيار لا يستطيع أحد منا أن يهرب منه.

* * *

عندما انتقلت كارول وزوجها ديل إلى حارتنا في أواسط السبعينات، كان واضحاً منذ البداية أنها تنتمي إلى فئة الناس التي تهتم بالانشغال في الحياة. ولقد أغضبت صراحتها وقدرتها على تسمية الأشياء بأسمائها بعض الناس. ولكن الكثيرين من المراهقين والشباب خصوصاً، وجدوا فيها صديقة دافئة القلب وجديرة بالثقة. ورغم أنها عاركت نوبات من الاكتئاب العميق، وشعرت بالعزلة بالنسبة للذين يحيطون بها، فإنها لم تستسلم أبداً لمخاوفها. وكان هناك خيار واحد فقط بالنسبة إليها وهو الحياة.

وفي عام ١٩٩٥ عندما كانت في الثالثة والخمسين من عمرها، تم تشخيص

سرطان الثدي لدى كارول. وأدت الجولة الأولى من العلاج الكيماوي إلى اختفاء المرض، ولكن المرض عاد إليها من جديد في آذار عام ١٩٩٧. وأظهرت الفحوصات الطبية أن السرطان قد انتشر في الرئتين، وظهر بصورة جلية أن هذا المرض سوف يؤدي إلى وفاتها. وأخبرها الأطباء بأنها يجب أن تتوقع الموت في غضون أشهر. وبدأت تخسر معركتها مع المرض بشكل ملحوظ في بداية فصل الصيف، وأصبحت بحاجة إلى دواء بسبب الألم الشديد، رغم أنها أصرت على الاستمرار في عملها اليومي كالمعتاد، وقامت بتغيير موعد زواج ابنتها من شهر تموز إلى حزيران، إذ كانت تخشى من أن لا تحضر ذلك الزواج.

ولكن كارول كانت مقاتلة، وكانت لا تقبل البقاء في وضع صعب لمدة طويلة. ولقد أدهشت زوجها وجميع الذين عرفوها – وربما نفسها أيضاً – بقفزها من حافة الموت، عندما ظن الجميع بأنها سوف تموت. كان علينا أن نعرف أن كارول قد قررت أن تموت وهي واقفة على قدميها، في المكتب الذي عملت فيه. كانت تعرف أنها ستعيش وقتاً قصيراً، ولهذا لم تكن تريد أن تسيء استخدام هذا الوقت. كان هنالك العديد من الأشياء التي كانت تود أن تقوم بها، والكثير من الناس الذين كانت تود أن توجه لهم كلمة تشجيع أو ابتسامة ودية، وقالت ببساطة: "لا يوجد لدي الوقت لكي أموت."

ماتت كارول في ١ كانون الأول ١٩٩٨، وكان من المفروض أن تموت قبل ذلك الوقت بكثير. لقد نظرت إلى مرضها كأنه تحدي آخر تواجهه في حياتها. وتحدثت في مقابلة مع إحدى المجلات قبل خمسة أشهر من وفاتها، عن

صراعها من أجل الحياة فقالت:

"عندما سمعت للمرة الأولى بأنني مصابة بالسرطان، شعرت بالرعب لأني كنت دائما أخاف جداً من الموت. وبعد أن استمعت إلى تشخيص الطبيب للمرض، لم يدم هذا الشعور طويلاً. فلقد شعرت في الحقيقة بأنني مرتاحة. لا أعرف لماذا، ربما لأنني دائماً كنت أخاف الموت، وظهر فجأة مرض السرطان، ولم يكن علي أن أقلق لسبب بعد ذلك.

لا شك أني قد تحطمت بسبب هذا المرض. وبعد الجرعة الأولى من العلاج الكيماوي كنت أجلس وأشعر بهذا الورم تحت ذراعي. وكنت أظن بأنني لن أواجه في الحقيقة إمكانية الإصابة بالسرطان المؤدي إلى الموت، ليس في تلك الفترة على أية حال.

ويبدو في مثل هذا الأمر الكثير من الغباء، ولكنه كان حقيقياً: كنت دائماً أشعر بالخوف والتوتر من السرطان طيلة حياتي، ولكنه عندما أصابني، لم أعد أشعر بالخوف. لا أحب استعمال كلمة "هدية"، لأنها تستعمل بكثرة، ولكن هذا المرض كان بالنسبة لي هدية. نظرت أنا وديل إلى بعضنا البعض وقلنا: "إنه هنا.. نحن الآن بين يدي الله".

وكان ديل يطلق النكات حول الأمر عندما اكتشفنا بأني مصابة بالسرطان. يجب أن لا أستسلم وأتحطم. كنت أقاتل للاستمرار بالعيش بكل شيء لديّ. وهذا هو السبب الذي جعلني أعتقد بأن العلاج الكيماوي هو الجواب في البداية، لأنني شعرت بأنني كنت أقاتل المرض بكل شيء لدي مهما كلف الأمر.

ثم اكتشفت بأنه سرطان ميئوس منه، ولم ينج منه أحد. أظن أنهم أخبروني بأن معدل النجاة كان في الأساس صفراً ، ولكني لم اسأل ولم أعط الأمر إهتماماً. وكنت قد عرفت من أختي التي توفيت بالسرطان نفسه، بأن الإحصائيات كانت قاتمة تماماً. وكان ذلك عندما قلت: "انسي الأرقام، لن أمضي بقية حياتي في السرير، أشعر بالمرض لكني سوف أعيش بكل شيء لدي".

وعندما تعيش مع السرطان، تبدأ بالإدراك أن عليك أن تستفيد من كل يوم، وتصبح كل دقيقة ثمينة. وكما تعرفون بأننا نمضي الكثير من وقتنا في معالجة المشاكل التافهة والتفكير بأفكار تافهة. وأصبحت أرى أن هذا نوع من الاستنزاف الكامل يجب أن ينتهي. يوجد غضب وحسد وكل نوع من أنواع العاطفة في العلاقات بين الناس. إن الناس يسيئون إلى بعضهم البعض ويتألمون بسبب أشياء صغيرة. لقد أصبحت أرى أن هذا شيء سخيف – ببساطة شيء سخيف – أن تفقد الوقت في مثل هذه الأشياء. لقد تحدثت أنا وديل عن سنوات عديدة من حياتنا ضاعت ونحن نحمل ضغائن صغيرة وأشياء لم نتمكن من استيعابها، أو نكافح من أجل خلق الظروف المناسبة لمواجهة مشكلة أو أي شيء آخر.

إن اللحظة الحاضرة هي لك كما هي لي، أو لأي شخص آخر. إنها كل ما لدينا من الوقت. ونميل إلى التفكير: "سوف أعمل ذلك غداً، أو سوف أنتظر حتى يكون لدي الوقت لأتابع ذلك". ولكننا في الواقع لا نملك الغد. ولا أحد لديه الغد. لدينا فقط اليوم، ولدينا فقط بعضنا البعض: الشخص القريب منك،

الشخص الذي تعيش معه أو تعمل معه. إن معرفة ذلك كانت تحدياً كبيراً لي. أستطيع أن أتذكر الأمس، ولكنني لا أستطيع أن أعيشه ثانية، ولا توجد لي فكرة عما سيجلبه الغد، كل ما لدي هو الآن فقط. وبالأمس لم أفكر بأنني سأعيش يوماً آخر، ولم يفكر أطبائي وعائلتي كذلك. واليوم لا أشعر بأنني قريبة من الموت. وهذا هو الشيء المثير، لأنه يجبرك أن تعيش الآن في الحاضر. ويمكن أن يبدو من الحماقة أنني لا أزال آتي إلى هنا إلى المكتب كل صباح، ولكن ليس لديك فكرة كم يحمل ذلك من المعنى بالنسبة لي، إذ أصادف في العمل جميع الناس الذين أحبهم. لا أريد أن أجلس في البيت أنظر إلى جدران أربعة. أريد أن أكون بين الناس، أتحدث وأضحك وأبكي في أحيان أخرى. وبالقطع لا أستطيع احتمال كوني وحيدة في السرير.

إنه من المدهش أن تتمكن العيش كما لو كنت سوف تستمر. أظن بأن هذه هي النصيحة التي أود إعطائها إلى كل شخص: أن تستمر في حياتك بأية طريقة تستطيعها.

لكل واحد منا حياة يعيشها، وحالما نجدها، علينا أن نعيش من أجلها. يجب علينا أن نكون مستعدين للتخلي عن كل شيء، وكل شيء تماماً لكي نتبع ما وجدناه. أنا لا أقول بأن علينا جميعاً أن نكون في قمة النشاط، إن الأمر لا يتعلق بالشخصية، ولكن لكي نعيش حقيقة يتطلب ذلك منا كل الجهد".

١٠

قل شكراً

"عش حياتك ولا تجعل الخوف من الموت يدخل الى قلبك. عندما تنهض في الصباح تقدم بالشكر لأنك تعيش في ذلك اليوم. وقدم الشكر لكونك قويا حيا. قدم الشكر لأنك تحصل على ما تحتاج إليه من طعام ومتعة في الحياة. وإذا وجدت أن لا سبب هناك يدعو إلى تقديم الشكر، فكن متأكدا بأن الخطأ يكمن في داخل نفسك."

قول منسوب إلى الزعيم تكومسح

لا يجد معظمنا صعوبة في قول كلمة "شكرا" عندما نحصل على الأشياء الجيدة. ولكن تقديم الشكر من أعماق القلب لما يحدث لنا كل يوم، حتى ولو كان ذلك سيئا، فانه عمل كبير. ويقول المتصوف "مايستر ايكهارت" الذي عاش في القرون الوسطى: "**إذا كانت الصلاة الوحيدة التي تتلوها هي شكر، فانها تكفي.**" واذا أخذنا بهذه النصيحة فمن السهل اتباعها. ولكن ماذا يعني الشكر الصادق في الحقيقة؟ إن الكاتب "هنري نوون" الذي قرر أن يترك عمله كأستاذ في جامعة ييل ليعيش ويعمل في بيت جماعي للمعاقين عقليا كتب ذات مرة يقول:

"إن الامتنان بسبب الحصول على الأشياء الجيدة التي تحدث في حياتنا هو أمر سهل، ولكن الامتنان لكل ما حصلنا عليه في الحياة – الأشياء الجيدة

والأشياء السيئة، لحظات الفرح ولحظات الحزن، النجاح والفشل، للمكافآت التي نحصل عليها والرفض الذي نواجهه- يتطلب عملا روحيا شاقا. ونستطيع حقيقة أن نتقدم بالشكر اذا قلنا شكرا لكل الأشياء التي أوصلتنا إلى هذه اللحظة."

يوجد العديد من الأشياء في الحياة لا نستطيع السيطرة عليها، **ويجب أن نتعلم النظر الى الظروف التي تواجهنا كفرص للتقدم وليس للتراجع.** وطالما كنا نتراجع أمام كل موقف يثير أعصابنا، فإننا لن نعرف السلام أبدا. ولا يعني هذا أن نتقبل بصمت كل شيء يعترض طريقنا، ولكن عندما تلقي الصراعات أو المشاكل بثقلها علينا، يصبح الامتنان وسيلة لكي نغير نظرتنا الى الحياة. وقد أخبرني أحد الأشخاص في الفترة الأخيرة، قائلا: "عندما كنت في إحدى المناسبات في اكتئاب عميق، خطر لي أن أنظر بامتنان الى شيء واحد فقط، فتكون تلك الخطوة الأولى لرفع معنوياتي. يوجد دائما شيء واحد تستطيع أن تجده لتكون سعيداً من أجله.

* * *

لقد كتب "ديتريش بونهوفر" إلى خطيبته "ماريا وديماير" عشية إعدامه يقول: "يجب أن لا تفكيري بأنني غير سعيد. فما هي السعادة ؟ إنها تعتمد إلى حد ما على الظروف . إنها تعتمد في الواقع على ما يحدث داخل الشخص. أنا أشعر بالامتنان في كل يوم لأنك خطيبتي وهذا يجعلني سعيدا".

وعرفت من خلال التجربة أن أكثر الأسباب انتشارا لعدم الامتنان، ليست

صعوبات الحياة، وإنما الفهم الخاطئ للسعادة. لقد فهم بونهوفر، أن وجود أو غياب الصعوبات، يجب أن لا يكون له علاقة بحالتنا الفكرية أو الروحية. ويحاول معظمنا قياس السعادة بناء على مقياس خارجي: الأشياء الجيدة مقابل الأشياء السيئة. إننا غالباً ما نعتبر الأشياء الجيدة في حياتنا كالعائلة والطعام والبيت والأصدقاء والحب والعمل –أشياء مضمونة. إننا نعتبرها حقوقا لنا وليست هبة.

لا شيء يرضينا عندما تكون توقعاتنا الأنانية أكثر مما نستحق، ومن هنا جاءت المقولة التقليدية "إن العشب دائماً أكثر اخضراراً على الجانب الآخر من السياج". وطالما كانت رؤيتنا محدودة برغباتنا واحتياجاتنا، فاننا لن نتمكن من رؤية رغبات الآخرين واحتياجاتهم، بصرف النظر عن الأشياء التي يجب أن نكون ممتنين لها. كتب والدي ذات مرة الى صديق له يشعر بالتعاسة، ما يلي: "ستجد دائما أسبابا للتذمر، واذا أردت أن تجد السلام، عليك أن تكون مستعدا للتخلي عن هذه الأسباب." إن قصة أيوب في العهد القديم خير مثال على الامتنان والشكر عند مواجهة الصعوبات. إنها قصة تناقلتها أجيال من القراء (لجمال كلماتها ومضمونها أيضا). إنها تروي قصة رجل كان يملك كل شيء – الأرض الخصبة والحيوانات الكثيرة والخدم المخلصين – وخسر فجأة جميع هذه الأشياء، ولكي تزداد معاناته أكثر، غطت البثور جسمه واتهمه أصدقاؤه بأنه قد جلب لنفسه هذه المعاناة – وكأن سبب موت أولاده – نتيجة لعمل الشر– رغم أنهم لا يعرفون ما هو هذا الشر، وانقلبت عليه زوجته. ورغم ما أصابه من ويلات، فانه رفض أن يجعل المرارة تدمره. وخالف كل منطق

وتمسك بإصرار بالإيمان بالله الذي منحه الحياة في الدرجة الاولى.

* * *

وليم مارفن هو كاهن في الاباما. وقد اتصلت به للمرة الاولى قبل عام عندما تقدم بعرض لإرسال مساعدة إنسانية إلى كوبا. ونال وليم أكثر من نصيبه العادل من المعاناة بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة. ولكنني لم أسمعه أبداً يتذمر. ورغم تعرضه لاختبار تلو الآخر على غرار أيوب، فقد أصيب بمرض شبه مميت، وفقد عمله وطلقته زوجته. ولكنه لا يزال يدرك بأن آخرين قد تحملوا معاناة أكثر منه. ولا شك أن هذا الموقف هو سبب شعوره بالسلام.

"ماتت أمي فجأة عندما كنت في الثامنة من عمري. وتزوج والدي امرأة أصغر منه سنا بعد عام من ذلك. ولم تكن الحياة سعيدة في بيتنا. وكان والدي يدير مدرسة اشتهرت بتطبيق نظام صارم للمعايير المدرسية العالية، ونقل ذلك إلى بيته. لم يعمل على الإساءة إلي جسديا رغم أن امرأة أبي قد صفعتني مرة أو مرتين. كان سلاحها السخرية، وكانت القاعدة السائدة: "ما تقوله الأم يجري تنفيذه". وخلال فترة مراهقتي كنت أعمل ما فيه الكفاية لكي أنجح في المدرسة، وكان ذلك شيئاً مهماً بالنسبة لهما، وقد أستطعت من خلال ذلك أن أواجه التحدي. وحالما تخرجت من المدرسة الثانوية طلبا مني أن أترك المنزل. وعشت مع عائلة عمتي حتى كبرت بما فيه الكفاية لانخرط في الجيش. وكانت سنوات خدمتي في الجيش صعبة، فقد رأيت المعارك والرجال يموتون، وأصبت بجراح. وذهبت بعد الخدمة في الجيش إلى الجامعة دون أن يكون

لدي صورة واضحة عما يجب أن أقوم به في حياتي.

تزوجت وسرعان ما أصبح لدي ولدان وبيت في إحدى الضواحي، وسيارة وعملت ساعيا للبريد. وبعد مرور ثلاث أو أربع سنوات، أصبحت غير راض تماما عن حالتي. وقررت بعد الكثير من التفكير وفحص النفس وطلب النصيحة أن أصبح قسيسا أسقفيا. فأمضيت فترة قصيرة في كلية اللاهوت، ثم ذهبت الى خلوة دينية، سيطر علي خلالها قلق وشعور غريب . ذهبت الى المسؤول عن الخلوة وهو راهب من رهبنة الصليب المقدس، وأخبرته بأنني ارتكبت خطأ لا يسمح لي بأن أكون قسيسا. وكان جوابه: "أنت لست جديرا بطبيعة الحال! ولا أحد منا جدير، ولكننا نحن ما يعمله الله."

وبعد تخرجه وسيامته، خدم وليم في عدة رعايا، وسرعان ما أدرك بأن موقفه يختلف عن موقف رؤسائه. ولم يمض وقت طويل حتى طلب الإعفاء من واجباته. ولم يجد فرصة للعمل خلال فترة طويلة، لأنه وجه نقدا للنهج الذي كانت الكنيسة الأسقفية (الكنيسة الانجليكانية) في الولايات المتحدة الأمريكية تسير فيه. وأخيرا وجد مكانا في الرعية التي يخدم فيها الآن.

وتعرض خلال هذه السنوات لظروف صعبة. فقد قتل ابن وليم الأصغر في حادث سير، ثم تورطت زوجته في علاقة مع رجل وخرجت من البيت، وتم بعد ذلك طلاقهما، وأدمن ابنه الثاني شرب الكحول ومات في سن الخامسة والثلاثين بنوبة قلبية حادة. وكانت هناك في نفس الوقت بعض الأمور التي تبعث على الرضا، فقد أصبح ابنه الأكبر محاميا ناجحا، وحصلت ابنته على درجة دكتوراه وانضمت إلى الهيئة التدريسية لجامعة نوتردام الذائعة الصيت،

ووجد وليم نفسه في رعيته محاطا بالمشاعر الدافئة، ولكن حياته لم تكن سهلة.

"هل وجدت السلام ؟". "أعتقد ذلك. لقد أوفيت بالتزاماتي نحو أولادي. وأنا أعتني بالناس في هذه الرعية وأخطط أن أفعل ذلك إلى ما شاء الله. ويبقى علي شيء واحد يجب أن أفعله . يجب أن أموت. وحتى ذلك الوقت، ورغم أنني أخطط للأمام، فأني أحاول أن أعيش كل يوم كأنه آخر أيامي."

"ليس غريباً أن أعتقد بأنني في رعاية الله منذ يوم ولادتي. لقد فقدت أبنائي، و تخلت زوجتي عني، وقبل واحد وعشرين عاماً، عندما طردت من الكنيسة، وقتل ابني الاصغر، وكانت زوجتي تتعافي من نوبة قلبية (وكانت على وشك أن تتركني)، كنت أعمل عشر ساعات في الأسبوع فقط، قال لي أحد الأصدقاء بأن حالتي تشبه حالة أيوب. فقلت له : "حسنا، ولكني لا أعاني من البثور". وذهبت كما أفعل كل يوم جمعة للعناية برجل مريض، وهو طبيب متقاعد على وشك الموت. لقد فقد ثلاثة من بناته بسبب مرض السرطان، وأجريت لزوجته عملية لانتزاع سرطان قبل بضعة سنوات، وأحمل له كل يوم أحد "القربان المقدس". إنه ليس الشخص الوحيد في الرعية الذي أعطى النعمة الخاصة لتحمل الأعباء. فكل شخص تقريبا يجرب العذاب في وقت من الأوقات. فقد أصيبت امرأة شابة بحروق من الدرجة الثالثة في أكثر من أربعين بالمئة من جسمها وتخلى عنها زوجها، وهي تربي الآن ثلاثة أطفال صغار بمفردها، وتقوم بذلك بشكل جيد. إن معرفة هؤلاء الناس، ومشاركتهم لعاناتهم، كانت مكافأة عظيمة من عند الله، فأنا اشعر بالامتنان، لان هذا قد جلب لي السلام.

١١

الشعور المزعج

"ليس هدف الحياة أن تكون على جانب الأكثرية

وإنما أن تهرب لتجد نفسك في صفوف المجانين."

ماركوس أوريليوس

مهما كان البحث الذي يقوم به كل شخص عن السلام فريدا ومميزا، فان هناك ما يربط بين الجميع. ومهما كان المدى الذي يصل إليه، فإن كل واحد هو في رحلة نحو الكمال. يقول بعض الناس إنهم ينشدون سلام العقل، وآخرون سلام القلب. يفتش بعضهم عن الصداقة ويبحث آخرون عن الحياة الاجتماعية. ويبحث بعضهم عن الهدوء الداخلي في حين يبحث آخرون عن الانسجام العالمي، ويدفع كل هذه المطالب الشعور بأن الحياة قلقة، هناك حاجة إلى التغلب على هذا القلق.

تتوزع الحياة بين جوانب مختلفة، بين المنزل ومكان العمل، وبين الخاص والعام، بين العمل ووقت الفراغ، بين الناحية السياسية والمهنية والناحية الشخصية، ولا يوجد خطأ في ذلك. تبدأ المشاكل عندما تخلق هذه المجالات المختلفة تناقضات وصراعات. وسرعان ما يصبح عدم الثبات حلا وسطاً أو نفاقاً.

أخبرني صديقي "شارلز هدلاند" أن توزيع اهتمامه في الحياة على جوانب مختلفة، دفعه الى الانطلاق في البحث عن السلام. كوّن له عمله كمحاسب في شركة كبيرة في كرويدن مجموعة من الأصدقاء، وعند اشتراكه في حركة السلام كون مجموعة أخرى، إضافة إلى مجموعة ثالثة من أعضاء كنيسته، وأخيرا أفراد عائلته. ولم تكن هناك علاقة بين كل هذه المجموعات، وكان عليه أن يقوم بالتوازن بينها يوميا، لكي يفي بالتزاماته نحوها كلها.

* * *

ظهر في الستينات اسم دانيال بريغان، وهو كاهن يسوعي، في العناوين الرئيسة في الصحف الكبيرة، عندما اقتحم هو وثمانية آخرون (وكان أخوه فيليب بينهم) مكتب التجنيد في كاتونزفيل بولاية ماريلاند، والقوا بجميع ملفات التجنيد التي وصلوا إليها في الشارع، وقاموا بصب "النابالم" المصنوع محليا على هذه الملفات، وأشعلوا فيها النيران أمام مجموعة صغيرة من مراسلي الصحف والتلفزيون. وكان هذا عمل احتجاجياً ضد الحرب الفيتنامية. ويقول بريغان: لم تكن الويلات التي تسببها الحرب هي التي دفعته لاتخاذ مثل هذه الخطوة الدراماتيكية، وانما "الضمير المعذب" الذي كان وراء حلول الوسط والنفاق لدي الكثير من الكهنة والقساوسة، الذين كانوا في وقت السلم يعظون بحماس عن الوصايا العشر، وخصوصا "لا تقتل". وأصبحوا في وقت الحرب على استعداد لمباركة قاذفات القنابل التي استعملت لإسقاط النابالم، ليس فقط على أهداف العدو وإنما أيضاً على سكان القرى المدنيين.

ولقد اكسب التزام بريغان الذي لا يتزعزع بالسلام، منذ انتهاء حرب فيتنام، اكسبه عدداً لا يحصى من المعجبين والأصدقاء، ونصيباً من الأعداء أيضاً. ولكن عدم الالتزام كان يظهر من جهة أخرى، فالمعارضون للحرب يؤيدون الاجهاض، والعسكريون يؤيدون الحياة، والمعارضون للاجهاض يؤيدون عقوبة الإعدام وهكذا. ويستنتج بريغان من ذلك :"أن كل شخص يريد أن يتخلص من شر معين، لكي يشعر بأن العالم سوف يصبح مكاناً أفضل. ولا ندرك أننا لا نستطيع أن نؤيد القنبلة وأن نحب الأطفال في نفس الوقت."

* * *

قد عبر "كينيث ل. كوهين" عن نفس المعنى في مقال نشر مؤخرا، يذكر فيه القراء بالوجهين المرعبين للحياة النازية، حيث "أطلق الأزواج والآباء الودودون النار على اليهود في الصباح، واستمعوا الى موزارت في المساء". إن هذا المثل الغريب، يبرز النهاية المحتملة لكل طريق تستمر فيها النزاعات بدون حل، وتهدد ليس السلام فقط وإنما الحياة ذاتها.

* * *

اشتاق تشارلز مور وهو أستاذ جامعي سابق الى الكمال في حياته ولكنه لم يجده. واستنتج في النهاية بأنه طالما ظل يعمل في مركز بحثه الشخصي، فانه لن يجد جوابا مرضيا.

"عندما أفكر في حياتي قبل عشر سنوات، أرى أنني كنت أعيش في موت

بطيء من الانحلال التدريجي. كانت الطاقة المتفجرة لشبابي تتبدد بسرعة، ليس بسبب العيش الطائش، وإنما نتيجة للمحاولة الهوجاء للإمساك بكل شيء في نفس الوقت. كان ذلك الذوبان نتيجة لما اخترته. كنت مصابا بهوس يدفعني بجد لكي أكون طبيبا والبي حاجات الآخرين، وكانت هنالك قضايا جيدة كثيرة لكي أنضم اليها، والكثير من المعرفة للاطلاع عليها، والكثير من الناس لمقابلتهم، والعديد من العلاقات والالتزامات، والعديد من الفرص لاكتشافها. ولكن لم يكن هنالك تناسق بين هذه الأشياء وكنت مجزأ بين الداخل والخارج.

ويسهل علي الآن أن أرى كيف حدث كل هذا، أكثر مما كان ذلك ممكنا في ذلك الوقت. كنت ببساطة غير قادر على الربط بين الخيوط المنفصلة والمتعلقة بحياة مليئة جدا. وإنني لم أستطع أن أضم الخيوط مع بعضها بصورة تحمل معنى.

كان هنالك عملي كأستاذ جامعة ودراسات العليا. ويتطلب كل منهما وقتا كبيرا وتركيزا كاملا. وكان هذان القسمان من حياتي يرتبطان في الحقيقة بعالمين منفصلين رغم اشتراكهما في المضمون. ثم كانت هنالك العلاقات المهنية مع الزملاء، وبغض النظر عن الاهتمامات الاكاديمية المشتركة، كان هنالك القليل المشترك بيننا.

وبينما ازدادت مطالب الحياة، بقيت مقدرتي محدودة. واضافة الى ذلك كان لدي اهتمامات ومصالح أخرى. كانت هنالك حياتي الشخصية – زوجتي لزلي وأصدقائي وأصدقاؤها وعائلتي وعائلتها – وبابعاد متعددة لم تبدو أبداً أنها

تتقاطع. ومهما حاولت فلم أستطع أن أجمع بينها، وكنت غير قادر على أن أفلت من أي منها، وسيطر علي شعور من أجل إبقاء كل شيء تحت السيطرة بشكل متزامن، فوضعت برامج مفصلة للتعامل مع كل جانب، وظننت أنني سأتمكن من اجتياز هذه الأمور. كانت لي علاقة استشارية موثوق بها مع صديق مقرب، وكنت أحصل على فرصة للتنفيس من خلال أوقات الفراغ والتسلية مع زوجتي، وتعلمت إعادة برمجة دراساتي العليا وضبط عبئي التدريسي، وتخليت عن بعض العلاقات التي تأخذ الوقت، وهكذا دواليك. ولكن محاولة ايجاد التكافؤ والتكيف مع هذه الأوضاع لم يكن الجواب. وبالرغم من كوني حسن النية وكثير الإخلاص، فقد كنت شديد التهيج ومنهكاً، وبقيت حياتي غير مترابطة.

وعندما انظر الآن الى الماضي، تظهر لي صورة ساخرة عن حياتي التي كانت مليئة بالأحداث، ولكنها كانت غير مكتملة. كان لدي في الواقع كل ما أرغب فيه : وظيفة ذات معنى، إثارة فكرية، ومخارج غيرية، وأصدقاء يعتنون بي، والنجاح المادي، والحرية في ضبط برنامجي متى شعرت بالحاجة لعمل ذلك. ولكن لم يكن لدي السلام. كانت حدود حياتي واسعة، بقيت كل الخيارات فيها مفتوحة.

وعندما أنظر إلى الماضي أرى أنني كنت أشارك تماما في خدعة كبرى: هي حياتي، أفعل بها كما أشاء. لقد جعلت حياتي مركز الكون حتى تحت شعار خدمة الآخرين. ورغم ما بذلت من جهد من أجل أن أعيش بدون أنانية، فقد وقعت في فخ جنون نمط حياة الطبقة الوسطى، التي تمحورت –

بـأكثر الطـرق دنيويـة - حـول الاحتياجـات والرغبـات، لم أسـتطع أن أرى أن هذا النوع مـن العيـش كـان حقيقيـا وصادقـا.

ومـهما كـانت عـدد الطرق الـتي حـاولت بـها أن أعـوض عـدم الانسـجام في حيـاتي، فلـم أجـد الشـعور بالتناسـق، الا عندمـا توقفـت عـن العيـش وفـق بنـود تتركز على تحقيـق الـذات الشـخصي والاسـتقلال. ورأيـت أنـه كـان علـيَّ أن أختـار بـين أسـلوبين : هـل أسـتطيع أن أعيـش بتلـك الطريقـة، وأجـد التـوازن بـين عـدد كبـير مـن المتطلبـات والعلاقـات الـتي اختارهـا بنفسـي، أو أن أبـدأ علـى أسـاس مختلـف تمامـا، حيـث يكـون المجتمـع (وليـس الـذات) والخدمـة المتبادلـة (وليـس تحقيـق الـذات الشـخصي) المقدمـة المنطقيـة.

لا أظـن بـأن قضيـة السـلام الشـخصي سـوف تختفـي كليـا. وأن الأحاسـيس والعواطـف في قلـبي ومسـار أعمـالي ليسـت متعارضـة: إن الأبعـاد الداخليـة والخارجيـة لحيـاتي منسـجمة ومتماسـكة مـع بعضـها، ليـس بقـوة الإرادة وإنمـا بشـعور عميـق بالسـلام. والأمـر الغـامض في ذلـك أن السـلام لم يـأت إلى حيـاتي لانني كافحت مـن أجلـه، وإنمـا لأن عيـني كـانت منفتحـة لـترى أبعـد مـن خرافـة التحقيق الذاتـي، وتكتشـف حقيقـة حيـاة أخـرى أكـثر فرحـاً."

* * *

بـدأ البحـث عـن الكمـال والسـلام بالنسـبة لمـارك وبولـين قبـل وقـت طويـل مـن لقائـهما وزواجـهما في بلفاسـت. ولـد مـارك لوالديـن مـن الطبقـة العاملـة وأمضـى أول عشرة أعـوام مـن عمـره في قريـة تكـثر فيـها المنـاجم، وتتمـيز بالتماسـك الاجتمـاعي،

وهـي تقع خـارج برمنجـهام، في منطقـة تتميز بالحياة الاجتماعيـة المشـتركة رغـم صعوبـات الحياة، ثـم انتقلـت عائلتـه إلى مجمـع سكاني في بلـدة صناعيـة أكـبر، وتراجعـت ببطء سـعادة سنوات طفولتـه. وعندمـا بلـغ الخامسـة عشـرة مـن عمـره انفصـل والـداه. وأحـس مـارك بـالألم والخيبـة، وأصبـح يجـد صعوبـة في الثقـة بـأي أحـد. وتـرك المدرسـة دون الجلـوس لامتحاناتـه. وبقـي مـع أمـه، ولكـن مظـاهر التوتـر ازدادت، وتـرك المـنزل وهـو في السـابعة عشـرة مـن عمـره.

لم يعـرف مـارك الى أي اتجـاه يذهـب وشـق طريقـه إلى لنـدن وهـو يـأمل أن يجد فيـها العمل ويحقق أهدافـه.

كنـت دائمـا أبحـث عـن شـيء حقيقـي وصـادق، ونظـرت إلى عـدد مـن الديانـات والجماعـات المختلفـة والحركـات، الا أنـني رأيـت فيـها الكثـير مـن النفـاق. وقـررت أن لا أكـون جـزءا في شـيء لا يظـهر لي بأنـه حقيقـي. وهـذا هـو الـذي دفعـني الى البحـث عـن الحقيقـة في بعـض الأحيـان، وعرفـت بأنـها شـيء يبتعـد عـن الأنانيـة. واذا رأيـت الأنانيـة في شـيء، عرفـت بأنـه غـير حقيقـي. ولم أدرك في ذلـك الوقـت بـأنني كنـت أنانيـاً جـداً.

وقـادت عشـر سنوات مـن البحـث المستمر مـارك الى ايرلنـدا الشـمالية، عـبر الأعمـال في المصـانع، والتشـرد في لنـدن، وفـترات طويلـة مـن الوحـدة، وإسـاءة استعمال المخـدرات، وأوقـات خلـف قضبـان السـجن، ورحـلات بريـة إلى ديـر بـوذي في التيبـت، ومعـتزل حكيـم هنـدي. وفي بلفاسـت تعـرف إلى بولـين عـن طريق صديق لهمـا. كـانت تـدرس الفـن في بوليتكنيـك اولسـتر. ومـا كـان للاثنـين أن يأتيـا مـن خلفيـات أكـثر اختلافـا. ولـدت بولـين في انجلـترا، وانتقلـت في سـن

الرابعة مع والديها إلى أيرلندا الشمالية، حيث عمل والدها في ادارة شركة كبيرة هناك. وهي تتذكر وتقول:

"كانت طفولتي جيدة من حوانب عديدة، وكنت من عائلة انجليزية ثرية، تمكننا من العيش في أحد الأحياء الراقية على بعد عشرة أميال خارج بلفاست. ذهبت الى مدرسة بروتستنتية لا تدرّس التاريخ الايرلندي. ولكن عائلتي لم تكن جزءا من الثقافة البروتستنتية لايرلندا الشمالية. لم نكن نذهب الى الكنيسة، ولكن والدي تعاطف مع الكاثوليك الذين كانوا يعاملون كمواطنين من الدرجة الثانية في المصنع الذي كان يعمل فيه."

أتذكر أنه عندما بدأت الاحداث، لم يسمح لنا بالذهاب الى داخل بلفاست، وبدأنا نرى الجيش البريطاني في كل مكان، وعندما أصبحت مراهقة وبدأت في معرفة الناس في بلفاست، أدركت كم كان هذا الأمر يدمر حياتهم. ومرت سنوات قبل أن أفهم حقيقة ما كان يجري، لأن شخصاً بمثل خلفيتي، لن يتمكن من معرفة الأمر دون البحث فيه مباشرة.

وثارت بولين ضد تربيتها المليئة بالامتيازات، وتركت ايرلندا الشمالية في سن السابعة عشرة، وأمضت سنة في مدرسة للفن في شمال إنجلترا، قبل أن تعود إلى البيت وتستأنف دراستها في بوليتكنيك اولستر.

وكان الشيء الوحيد الذي عرفت بأنني لا أريده، هو الحياة التقليدية في بيت جيد، وسيارة جيدة، وعمل جيد وهكذا. وكان نظرائي يتجهون بهذا الاتجاه، وكان هذا ما يريدونه، وشعرت بأنه علي أن أهرب.

ورجعت بولين فيما بعد الى إنجلترا لتستأنف دراستها في بورتسموت:

"كانت مدرسة الفن تتمحور حول التعبير عن الذات. لم يكن هناك إرشاد قطعيا . كان من المفروض أن نذهب هناك ونعبر عن أنفسنا من الفجر حتى الغسق! وكانت تلك الفترة قمة عهد "الهيبيز" وموسيقى الروك، وكان الناس يعبرون عن مشاعر عنيفة. وكان في داخل نفوسنا نحن الشباب جوع للحب والحقيقة. ولقد عبرنا عن أنفسنا بطريقة مظلمة ومدمرة للذات بسبب الشعور باليأس، وكان المزاج السائد آنذاك مدمرا جدا، وعشنا نحن الطلبة مشردين في أرض ليست لنا، وكان البعض ينام هنا وهناك ويدخن المخدرات. كان هناك شعور بالفراغ، لا تستطيع أن تعيش معه، لأنه يدمرك.

وبما أنني تخليت تقريبا عن جميع القيم الاخلاقية، لم يبق لي شيء أتمسك به. وسببت الألم للعديد من الناس بشكل سيء جدا، ومن ضمنهم نفسي. عرفت بأن حياتي تتحطم، وبدأت أبحث عن معنى في الحياة. حاولت الذهاب الى بضعة كنائس في بورتسموت، ولكنني لم أشارك في أي خدمة أو طقس ديني، وإنما كنت أدخل وأمضي بعض الوقت لوحدي. وكان ذلك سبباً لكي أفقد أحد أصدقائي. وفي نهاية عام أصبحت على حافة الانهيار التام، وقفلت راجعا الى ايرلندا الشمالية، وكنت سعيدة في العودة إلى بيئة أكثر صداقة واهتماماً.

حصلت على عمل كطاهية في نزل للشباب الذين تم إطلاق سراحهم من السجن بكفالة، وكان مارك يعمل في نفس المكان. وأدى ذلك الى لقاء أحدنا للآخر. لم يكن اللقاء مثيرا، لذا لم نقع في الحب من رأسنا إلى أخمص قدمنا من النظرة الأولى، أو أي شيء مثل ذلك، ولكن عرف كل واحد منا أننا

نستطيع أن نكون معا ونبحث معا، ولا أحد منا يقول: "حسنا، هنا نتوقف، لقد ذهبنا بعيدا بما فيه الكفاية".

وتزوج مارك وبولين في نهاية الامر، ورحلا من المدينة، وتمكنا من ابتياع منزل ريفي في "جونيفال" من خلال مال حصلا عليه بالوراثة. ووفر لهما هذا المنزل الهدوء والعزلة وفرصة للتأمل، وشعرا بالرضا والسرور بالجمال الطبيعي الذي كان يحيط بهما. ولم يمض وقت طويل حتى داخلهما شعور بالقلق والوحدة. وبعد ولادة ابنتهما انتقلا الى إنجلترا حيث استمر بحثهما عن السلام، ويقول مارك:

"جربنا كنائس مختلفة وطوائف متعددة. لم اقرأ الإنجيل كثيرا في حياتي، ولكن الذي قرأته منه بالفعل جعلني أشعر بوجود شيء حقيقي وصادق في حياة يسوع. ولم أعرف في الواقع كيف كان ذلك ينطبق على حياتي، ولم يحدث نفس هذا الشيء في الكنائس التي ذهبت إليها من قبل – كان الأمر يبدو عاطفيا إلى حد مفرط."

عشنا بالقرب من لندن لفترة قصيرة، ثم التحقنا بإحدى الكنائس، وشعرنا بأن أفراد الرعية ينظرون الى معتقداتهم بإيمان قوي. ولم يمض وقت طويل حتى اتضح لنا وجود الكثير من التعاسة والفرقة بين أفراد الرعية. كان الناس يحملون الضغائن ويغتابون بعضهم، فلم نستطع أن نتقبل ذلك."

وعندما رجع مارك وبولين الى بريستول، انضما الى عدد من الأصدقاء الذين كانوا يعيشون مع بعضهم البعض في بيتين متجاورين في وسط حي من أسوأ الأحياء في المدينة. كانت العاهرات تقف على مفترقات الشوارع، وكانت

المخدرات تباع في رابعة النهار والجرائم متتالية. وحاولا في هذا المكان خلق جو فيه شيء من الروح الاجتماعية. ويقول مارك: "كنا مثل نوع من المسيحيين السقماء، ولم يكن العيش المشترك سهلا، ولكننا شعرنا بأننا كنا نتخذ خطوات أقرب إلى الحياة الحقيقية التي كنا ننشدها!

وبعد مرور عام، انفرط عقد تلك المجموعة، وقرر مارك وبولين أن يبحثا عن شيء جديد للمستقبل، يختلف جذريا عن أي شيء عرفاه في السابق. ويتذكر مارك ويقول: "كان واضحا بالنسبة لنا، أنه كان علينا أن نعيش مع بعضنا ومع الآخرين إذا أردنا أن نشعر بأننا كاملون".

وفي النهاية أثمر سفرهما وبحثهما عن اكتشاف مجتمع يعمل الناس فيه بجد، لبناء علاقات حقيقية صريحة بعيدة عن الثرثرة. وكما يقول مارك: "كان ذلك مكان التصق الناس فيه بعضهم البعض أثناء اليسر والعسر، وساعدوا بعضهم البعض في السراء والضراء. وكان المكان الذي أستطعت أن أتعلم فيه الثقة بالآخرين مرة ثانية. وبعد مرور أربعة عشرة عاما لا نزال نعيش في هذا المكان. ولكن لا أحد منهما يدعي بأنه وصل إلى حالة من السلام الثابت. وكبقية الذين يعيشون معنا، فان بحثنا عن السلام يستمر مع كل يوم جديد". وتقول بولين: "إننا نجد الكمال والسلام عندما نبتعد عن الأشياء الخاطئة التي عملناها في الماضي".

كانت الأنانية السبب في الكثير من الأذى الذي سببته للآخرين، فقد كانت العلاقات الجنسية غير الملتزمة على سبيل المثال، صعبة جدا عندما واجهناها، ولكن معرفتنا وحاجتنا للتغيير وإصلاح الأخطاء، جلبت لنا حرية

جديـدة، وزودتنا بالشجاعة مـن أجـل أن نستمر، ولا زلنـا نرتكـب الكثـير مـن الأخطـاء، ونـؤذي في بعـض الأحيـان بعضنـا الآخـر أو الذيـن يحيطـون بنـا. ولكننـا نستطيع دائمـا أن نبـدي أسفنا، ونصلـح الأمـور ونسـير إلى الأمـام ثانيـة. وهـذا يجعـل قلوبنـا لينـة، ويزيـد مـن حبنـا لهـؤلاء الذيـن حولنـا، ويساعد في أن نسـتمر في هـذه الحيـاة".

١٣

انسَ نفسك

"لا تـدع الصعوبـات تجعلك مكتئبا أو لاهيـاً

لا تكن قلقاً جـداً علـى نفسك فالقضيـة الـتي

ستمسك بكل واحـد منـا هـي عظيمـة جـداً،

وأن نقـاط ضعفنـا الصغـيرة لا تسـتطيع أن تدمرهـا"

ابرهارد آرنولد

لن نصل أبـدا إلى حالـة سلام ثانيـة، أو نجدهـا مـرة وإلى الأبـد. نسـتطيع السير عـبر المـاء بـالحرص والجديـة الـتي نريدهـا، ولكـن علـى الجـانب الآخـر سـوف نبقـى نحـن أنفسـنا. ومـهما يكـن الأمـر فـلا جـدال بأنـه عندمـا نختـبر السلام، سوف تنفتـح قلوبنـا علـى صورة جديـدة مـن العيـش.

أخـبرني العديـد مـن النـاس الذيـن أسـهموا في هـذا الكتـاب، بـأن السـلام الـذي يبحثـون عنـه ويريـدون أن يشـتركوا بـه مـع الآخريـن، هـو الحيـاة الكاملـة. وأن البحـث عـن السـلام في حـد ذاتـه بالنسـبة لهـم، هـو عمـل يفيـد النفس كثـيرا. واذا وجـدت السـلام الآن، مـاذا يـأتي بعـد ذلـك ؟ إن الحيـاة الـتي يبحثـون عنـها ليست خالية بالضرورة مـن الصعوبـات والدمـوع، ولكـن اكتمالهـا يعـبر عـن الحريـة والفرح والتعاطف والعدالة.

أمضى الشاب جوزف بن اليعاز وهو اوروبي من أصل يهودي فترة طويلة من شبابه في البحث عن مثل هذه الحياة، إنه يصفها بتلك الطريقة :

"كان الذي قد دفعني إلى البحث عن ذلك، هو الكراهية التي عانيت منها، وسفك الدماء الذي رأيته في طفولتي وشبابي، وخصوصا خلال الحرب العالمية الثانية، عندما هربت عائلتي من المانيا إلى بولندا، ثم إلى سيبيريا، وأخيراً إلى إسرائيل. وشعرت بأن السلام يمكن أن يوجد في سياق الحاجة العالمية للأخوة، وهذا ما دفعني إلى البحث عنه.

اتجهت في البحث عن الجواب في الثورة العالمية. درست تعاليم ماركس ولنين وتروتسكي، وأصبح لدي في باريس علاقات مع مجموعات يسارية متنوعة، وشغلني خلال هذا البحث سؤال هام وكبير: أين الضمان اذا انتصرت الثورة بأن هؤلاء الذين يستولون على السلطة، سوف لا ينتهي الأمر بهم إلى اضطهاد الجماهير بأنفسهم كما حدث في روسيا وأماكن أخرى ؟

ثم بدأت اقرأ عن المسيحيين الأوائل، وأدهشني شيئاً ما جديداً تماماً. رأيت أن الكنيسة في القرون الأولى من وجودها كانت حركة ثورية حقيقية، تعد بنظام جديد وتقوم بتطبيقه. وكان يسوع الذي اتبعه هؤلاء الناس، ليس يسوع المسيحية التقليدية، وإنما كان ابن الله التاريخي الحقيقي الذي استطاع أن يتغلب على الانقسام بين الشخص والآخر، والأمة وغيرها.

وانتهى بي الأمر بعد سنوات من البحث، إلى اكتشاف القوى التي تدفع الناس إلى الاتصال مع أفراد آخرين لهم نفس المشاعر والأفكار. أعتقد بأن كل شخص يتوق إلى الاشتراك بمشاعره مع الآخرين، ولكن ينبغي أن يحصل تغيّر

في مشاعره قبل أن يشترك مع الآخرين. وهذا هو السبب الذي يجعل من الواجب على كل واحد منا أن يقف ويتوب، ليبدأ حياته من جديد. لقد أختبرت ذلك ولا أزال أقوم باختباره.

قليل منا يختبر مثل هذا الاتحاد مع هؤلاء الذين حولنا. نحن نستسلم إلى القلق والأمور التي تدفعنا في الاتجاه الآخر، وهي الأمور التي تسبب لنا التشتت أغلب الأحيان في الحياة اليومية. إن ضيق أفقنا وشعورنا بالملل هما السببان اللذان يمنعاننا من رؤية ما هو أبعد من أنوفنا. وإذا كنا بالفعل نبحث عن السلام فاننا نميل إلى البحث عنه بشكل أناني.

وعندما كتب عن تجربته في البحث عن السلام، عرف توماس مرتون، وهو راهب أميركي، قيمة التأمل والعمل الاجتماعي، واقترح أن يسير السلام جنبا إلى جنب مع ما دعاه "بانفتاح المحبة".

"إن الحياة التأملية هي البحث عن السلام. ليس في إغلاق الحواس على العالم، ولكن بانفتاح المحبة. عندما جئت إلى هذا الدير الذي أسكن فيه حاليا، جئت ثائرا ضد الفوضى التي لا معنى لها في حياة، كان فيها الكثير من النشاط والحركة والكلام والاثارة السطحية التي كانت لا فائدة منها، بحيث كنت لا أتذكر نفسي جيدا. والحقيقة أن هروبي من العالم، ليس توبيخا لكم أنتم الذين تبقون فيه، فأنا لا أملك الحق في نكران العالم بطريقة سلبية بحتة، لانني إن فعلت ذلك، فلن يأخذني هروبي إلى الحقيقية الكاملة أو إلى الله، وإنما إلى خداع خاص رغم كونه بلا شك خداعاً ورعاً."

وساهم مورتون قبل وفاته عام ١٩٦٨ بالمراحل الأولى لإنشاء مجموعة تأملية

جديدة في أميركا الوسطى، جابهت الظلم ووقفت مع المضطهدين وبقيت راسخة في التزامها بالمحبة.

عمل ديفيد براندون في الستينات في الراديو والتلفزيون، وكان دوره في التمثيلية التلفزيونية الذائعة الصيت "تعالي يا كاثي إلى البيت"، قد اكسبه الشهرة في جميع أنحاء بريطانيا. وهو يعمل اليوم أستاذا في كبمبردج، ويدرس التربية الاجتماعية. وديفد بوذي ملتزم، يخصص وقتا كل يوم للتأمل أو الجلوس كما يسميه . ومن الناحية الظاهرية لا يوجد أي شيء يوحي بطفولته المحطمة وشبابه المضطرب أو محاولاته للانتحار. ولكن عندما نتحدث معه، يصبح من الواضح بأن السلام الذي يستمتع به الآن، ويحاول إيصاله إلى الآخرين، قد حصل عليه بعد أن دفع ثمناً كبيراً.

"ترعرت في بلدة "سندرلاند" التي تكثر فيها المناجم ، وهي تقع في الشمال الشرقي من إنجلترا، وليست بعيدة عن الحدود الاسكتلندية. كان والدي رجلا عنيفا جدا وله صبر محدود . وما زلت أتذكر الطريقة التي كان يضربنا بها. كان في بعض الأحيان يغلق باب كوخ الفحم علي وعلى أخي، أو يركلنا ويضربنا بقبضة يده، أو بمضارب التنس القديمة أو العصى. وكان يهاجمني أحيانا ويضربني عندما أكون نائما في فراشي. كان الجو الذي يحيط بنا نحن الأولاد وبأمنا جوا صعبا ووحشيا. وكانت أمي تنال نصيبها من الضرب. وكانت تضرب بشدة كبيرة. وكانت أرض الغرفة لا تخلو من بقع الدم. وسرعان ما هربت من البيت بعد أن تمكنت من ذلك. وعندما كنت في الثانية عشرة من عمري كنت أعمل خمسة وعشرين أو ثلاثين ساعة في الأسبوع.

افترض بأنكم تقولون بأنه كان علي أن أصبح كبيراً في فترة مبكرة. عشت في الشوارع في مدينة لندن، وكنت أنام فوق أكوام الورق، وأمكث أحياناً في بيوت "جيش الخلاص". وكانت الظروف في هذه البيوت صعبة، والحياة فيها غير آمنة ومزعجة."

اختار ديفيد التعليم كطريقة للهرب، وعمل بجد، واجتاز الامتحانات، وشق طريقه في المدرسة والجامعة حيث التقى بزوجته المستقبلية "الثيا". تزوجا بعد التخرج، وبدأ يعمل في مجال مهنته وهي الخدمة الاجتماعية، وعمل مع الناس الذين لديهم معوقات تعليمية، ثم عمل في الإذاعة والتلفزيون مما سبب له الشهرة والاعتبار. وولد له طفلان، وبدت الحياة مريحة بشكل كاف، ولكن السلام كان الشيء الأخير الذي شعر به.

لقد واجه الكثير من النفاق في العالم، وعرف أن أقوال العديد من الناس لا تنطبق على أفعالهم، وأراد بشكل يائس أن يجد معنى في الحياة: "بدأت أذهب إلى كنائس مختلفة، أحاول أن أجد شيئا ما. وكنت غير متأكد تماما عما كنت أبحث، وإنما عرفت بأنني لم أجده. شعرت بالوحدة والعزلة كثيراً.

وعندما أصبحت في أواخر العشرينات في عمري، جابهت المصاعب في حياتي، وذهبت إلى كلية الاقتصاد في لندن لادرس الخدمة الاجتماعية. لم يتوفر لدي المال الكافي، وكان علينا أن نبيع ممتلكاتنا ونسكن مع والدي زوجتي. وكانت علاقاتي مع زوجتي "الثيا" ليست على ما يرام، وكانت تعاني دائما من الاكتئاب. وكانت جدتي على وشك الموت، وجدي مريض وأمي تصارع الموت، وأبي مصاب بانسداد في الشرايين. وكان كل الذين

أستطعت أن أفكر بهم من الأقرباء على حافة الموت بطريقة أو بأخرى.

كان الضغوط التي تحيط بي أكبر من أن أستطيع التغلب عليها، وانتهى الأمر بي إلى الشعور بالاستنزاف تماما، وهبوط المعنويات، ووجدت نفسي اتجه نحو الانتحار. عرفت بأن وضعي ميئوس منه، ولذلك قررت أن أعمل شيئا حياله، رغم أنه لم تكن لدي القدرة، وكنت مكتئبا جدا. وتدربت على المعالجة النفسية، وأشرفت على إدارة بيت مخصص للنساء المشردات.

كتبت كتابا، وفي الحفل المخصص للإعلان عن البدء بتوزيع الكتاب التقيت بالمعلمة "زن". ودون أن أعرف لماذا، سألتها "هل أستطيع أن آتي وأدرس معك ؟" فوافقت. وبدأت أستيقظ في الساعة السادسة إلا ربعا كل صباح وأتأمل لمدة تسعين دقيقة، وشعرت برغبة في الانتحار أكثر من مرة، ولكني كنت أتجاوز ذلك. أحتجت إلى نظام صارم في الحياة، وقد زودتني زن بذلك. ومع وجود هذا الروتين الثابت، لم يتوفر لدي ما يكفي من الوقت لاقتل نفسي! ولكن متاعبي كانت بعيدة عن الانتهاء.

وبعد وفاة والدي كنت أقدم مسلسلاً تلفزيونياً عن العنف. وأقنعني المنتجون أن أعمل برنامجاً عن حياتي، وهو شيء كنت أفعله عندما كان والدي على قيد الحياة. كان الثمن الوجداني ضخما لمدة شهرين أو ثلاثة بعد هذا البرنامج، وكنت محبطا جدا إلى درجة أنني لم أستطع الحراك. ولسبب ما قررت أن أقوم بتسلق جبال "هلفيلين" وهو من أعلى القمم في منطقة البحيرات. ولقد تسلقت العديد من الجبال ولكن ليس هذا، ولم أعرف سبب شعوري بالرغبة في تسلقه في ذلك اليوم من شهر شباط، ورغم ذلك انطلقت.

وصلت إلى "سترايدنج ادج" وهي حافة عرضها أقل من ثلاثة أقدام، وأصبت بدوار شديد، وكنت في العراء في وسط عاصفة ثلجية، وقد وصل الثلج إلى ركبتي. لم أتمكن من رؤية المكان الذي أذهب إليه، وأى خطأ في السير إلى الشمال او إلى اليمين، يؤدي إلى سقوطي مسافة ألف قدم. وكان الشيء التالي الذي عرفته، أنني كنت معلقا على شجيرة، وأدركت بأنه لا يوجد أسفلي سوى الهواء، وصوت في داخلي يقول: "لقد أتيت لقتل نفسك يا دافيد، أترك الشجيرة، وسوف تنزلق بعيدا، ولن تكون بعد ذلك مصدر إزعاج لأي أحد. وفكر جزء آخر مني في نفس الوقت: كيف أصبحت في هذا الموقف ؟ إن الأمر سخيف. ولحسن الحظ كان للشجيرة جذور قوية وأستطعت أن أعود إلى الممر، وأنا مستلقي ووجهي للأسفل، ولم أعرف كم كانت المسافة بعيدة. وكان شعور قوي يندفع في داخلي ويقول: أريد أن أعيش بشكل ملح، أريد أن أعيش!

كانت تلك نقطة تحول هامة في حياتي. ولا زلت أشعر بالاكتئاب بين الفينة والأخرى، ولكنني مصمم على العيش بحيوية متزايدة منذ ذلك اليوم.

وعرفت من خلال "زن" بطريقة لم أدركها من قبل، بأنني جزء من هذا العالم. وأحتاج ذلك بعض الوقت، ولكني أراقب الآن الأشياء التي تحيط بي وتسبب لي الفرح الدائم. كان ذلك الاكتشاف كبيرا، وبطريقة ما أدركت بأنني جزء من العالم وأن العالم جزء مني، وأن الكوكب مسكون. وجعلني هذا الشعور أشعر بنوع من الالتزام حيال الآخرين. وبسبب الماضي الذي عانيت منه في طفولتي وخلال تشردي، كان يسهل علي الاهتمام بمظاهر العنف في العائلات الاخرى، والعمل حتى لا يمر الناس الآخرون بنفس ما عانيت.

أظن بأنني أرى نفسي الآن مثل الشافي المجروح. أستطيع أن أستعمل تجاربي عند اليأس والصعوبات والكفاح كوسيلة للوصول إلى الآخرين. لا أعني بأنني أحاول منع المعاناة، وإنما أحاول أن أساعد الناس على فهم سبب معاناتهم.

الطريق المألوف هو أن تذهب إلى الرصيف وتلتقط قشور الموز حتى لا يتزحلق أحد. أما بالنسبة لي فانني أذهب في الصباح الباكر وأسقط قشور موز أكثر. ويقول الناس: "حسنا لماذا تفعل هذا ؟ فأقول لهم: "إن التعليم ليس أن تمنع الناس من السقوط، وإنما أن تحاول دفعهم إلى استخدام عيونهم". وإذا أزلت قشور الموز، فانك تقول بأن الحياة خالية من قشور الموز. حسنا، إنها ليست كذلك. إن الحياة مليئة بقشور الموز.

أحاول أن أعلم الناس أن يكتشفوا أخطاءهم، وأساعدهم في تعلم الدروس التي تلقيها الحياة. عندما تنزلق على الأرض وتسقط بسبب قشرة موز، أعرف السبب وتعلم منه. فليس من الحكمة في شيء أن يتدخل المرء بين الناس وبين ما تحاول الحياة أن تعلمهم. "

تحملنا أفكار دافيد إلى البحث عن السلام الحقيقي وليس مجرد السلام العادي. لقد قاده بحثه عن السلام الداخلي إلى مقابلات عديدة، وعلمه بأن الجوانب المختلفة للسلام متداخلة بشكل معقد. إنه اكتشاف قديم، ولكنه اكتشاف يجب أن يقوم به كل واحد منا. إن الذين يمضون حياتهم في تخفيف الأعباء عن الآخرين، يحتمل أن يجدوا خلال ذلك السلام الذي يبحثون عنه هم أنفسهم.

١٣

القاعدة الذهبية

"إن الفرح الحقيقي في الحياة هو أن تعمل لهدف تعرف أنه عظيم، وأن تكون قوة من قوى الطبيعة بدلاً من أن تكون لبنة صغيرة منعزلة، من المشاكل والنقد والشكوى، والتذمر من أن العالم لم يكرس نفسه لجعلك سعيداً. وأنا مع الرأي القائل بأن حياتي ملك للآخرين، والامتياز الوحيد هو أني أفعل لهم ما أستطيع، ما دمت حيا."

جورج برنارد شو

من أهم الأسباب الجذرية لشعور الناس بالاستنزاف: الأنانية، سواء داخل نفوسهم أو في علاقاتهم مع الآخرين أو في العالم الواسع. وربما كانت الأنانية من أكثر الأشياء صعوبة في الاقتلاع. إن العجرفة وعدم الثقة والغضب والكراهية من المشكلات التي يمكن معالجتها بطريقة مستقيمة، نستطيع غالبا اتخاذ خطوات محددة للكشف عن سببها والتغلب عليها. ولكن الأنانية تكون غالبا هنالك – غير محددة ولا تلاحظ، ولكنها قوية ومترسخة، وتؤثر في تشكيل نظرتنا الكلية إلى الحياة.

وتؤدي الأنانيـة في بعض الأحيـان إلى القيـام بأعمـال سـيئة واضحـة مثـل – الزنا أو السرقة أو الغش. وفي بعض الأحيان كمـا في حالـة البحـث "المتمحـور على الذات" عن السعادة الشخصية أو القداسة، فانـه يمكـن أن تـأخذ شـكلا غير مؤذٍ بحيث لا نشعر بخطرها. وعندما نتعرف على حقيقة الانانيـة، نجـد العلاج الوحيد والشائع لها هو ببساطة : خدمة الآخرين.

وحسب ما تقوله القديسة تريزا الافيلية، وهـي متصوفـة عاشـت في القـرن السادس عشر، إن الخدمة تمثل دور الله في علاقاتنا مع بعضنا البعض: "ليس لله يدان ولا قدمان ولا صوت، وإنما يعمل الله من خلال ما نملـك نحـن مـن الأيدي والأقدام والصوت".

* * *

عندما كنت أعيش مع عائلة كبيرة في إحدى المزارع، كان الجميع يعمـل بجد، ولم يتحدث أحد عن الخدمة بهذه الطريقة. ولو عدت الى الماضي، فأنا متأكد بأن والدي كانا ينظران الى الخدمة بنفس الاحترام.

لقد عرفنا أهمية الخدمة، وعندما كان العمل الوحيد الذي استطاع أن يقوم به والدي في ملجأ للبرص هو العناية بالبستان، كان ذلك يعني انتقال عدوى المرض إليه، والبقاء في الملجأ بشكل دائم. وهو لم يخبر أو لاده أبداً بذلك. وقال فقط إن القيام بأكثر الخدمات إتضاعاً للآخرين هو شرف اذا كنا نقوم به بفرح.

وكانت أمي مليئة بالنشاط، وتأخذ معها عندما تذهب لزيارة جار مسن أو أم جديدة، باقة من الورد أو علبة من الحلوى. وكانت تتخلـى عـن وجبـات

الطعام من أجل الجلوس مع شخص مريض، وتنهض مبكرة لكي تكتب إلى شخص يشعر بالوحدة، أو تنهي حياكة ملابس تقدمها هدية.

* * *

وتقول روث لاند، وهي طبيبة متقاعدة، عملت لسنين متواصلة في عيادة ريفية في أميركا الجنوبية، بأن هذا النوع من الخدمة المتواضعة يجلب لها اعظم الرضى:

"تستطيع أن تبحث عن السلام في كل مكان، ولكنك قد لا تجده. ويمكن أن تنسى نفسك، وتنشغل بعمل بسيط أمامك يجلب لك السلام – وقد تحتاج إلى مثل هذا العمل أو أي شيء آخر لإظهار المحبة لعائلتك. وإذا قمت به من أجل إنسان آخر فانه سيجلب لك السلام."

* * *

وثمة قصة أعاد غاندي روايتها، وهي ترتكز على حقيقة مشابه وهى أن أعمال اللطف الصغيرة التي نظهرها للآخرين هي مهمة جداً كأكثر انجازاتنا نبلاً. فقد أتت امرأة مضطربة إلى معلمها وقالت: " يا سيدي إنني لا أستطيع أن أخدم الله". فسألها: "إلا يوجد شيء اذا تحبينه؟" فأجابت: "أنا أحب ابن أخي الصغير". فقال لها: "هناك خدمتك لله في محبتك لذلك الطفل".

* * *

وتكون أعظم الخدمات في بعض الأحيان، أقلها ملاحظة. يعمل في

المجتمع الذي أعيش فيه كثير من كبار السن عدة ساعات في النهار: يطوون الملابس في المصبغة، أو يصنفون الكتب في مكتبتنا، أو يقدمون المساعدة في مشاغل الخشب والحديد. وفي كل حالة فان الخدمة التي يقومون بها لا تقدر بثمن، مهما كانت نتيجتها. إن الشعور بالرفاهية والسلام الذي تعطيه الخدمة لهم، والفرح الذي يشع من عيونهم عندما يتكلمون عنها، يثري حياتنا المشتركة بطريقة مدهشة. إن سلامهم يثير العدوى وينتشر في المجتمع.

* * *

يعاني "جو بوش" الذي يبلغ الخامسة والسبعين من عمره، وهو من سكان "ايلي" الأصليين، من مرض باركنسون. كان في الماضي بستانيا قديرا، وينحصر نشاطه الآن في الجلوس على مكتبه لعدة ساعات في اليوم ليقوم بعمل ترجمة، ويكتب بألم الكلمة تلو الأخرى. وكان يمكن أن يصاب آخرون بالاحباط، ولكن جو كان يقول : " إن عملي فرح بحت". وتجد زوجته أو دري نفس الفرح والسلام من خلال ما تستطيع عمله للآخرين:

"عندما أقول أنا أو جو لهؤلاء الذين يعتنون بنا لا شكرا، أستطيع أن أتدبر الأمر – ونحن شبه معاقين – فان هذا لا يعني بأننا غير ممنونين. إن الأمر فقط أن الحياة أكثر إثارة إذا استطعنا أن نكون مفيدين لأطول فترة ممكنة. إن الشمعة الطويلة لا تنطفئ فجأة عندما يبقى هنالك بوصة منها. إنها تستمر في الاحتراق حتى تتكون بقعة صغيرة من الشمع تظهر أين وصلت الشمعة. لا يزال هناك العديد من الأشياء التي نستطيع القيام بها حتى عندما لا نكون

قادرين على عمل أي شيء مفيد على الإطلاق، وإننا لا نزال نشعر بالعزاء عند قراءة السطر الأخير من قصيدة ملتون "حول عماه"، والتي كتبها في نهاية حياته بعد أن فقد بصره، وفيه يقول: " يخدمون أيضا الذين يقفون وينتظرون".

يقول "جو وأو دري" بأن الأعمال التي يقومان بها لها معنى، لأنهما يخدمان هدفاً واضحاً: "إن العمل لا يكون مجرد عمل لأنه مفروض علينا، فالعمل بدون هدف يكون بلا معنى، ويخلق الإحباط واليأس مثل البطالة والخمول". وفي رأي فيكتور فرانكل ينطبق نفس الشيء على الحياة بشكل عام:

لقد لاحظت بشكل متكرر، أن التوسل لاستئناف الحياة والبقاء في أكثر الظروف صعوبة، يمكن تحقيقه فقط عندما يكون مثل هذا البقاء له معنى. ويجب أن يكون ذلك المعنى محددا وشخصيا، يمكن أن يحققه الشخص بمفرده ويجلب له سلام العقل، لأنه يجب أن لا ننسى أبداً بأن كل شخص له ما يميزه في هذا الكون.

* * *

أتذكر محنتي في إحدى معسكرات الاعتقال عندما التقيت برجل وامرأة كانا على وشك الانتحار. أخبرني كل منهما، بأنهما لا يتوقعان شيئاً أكثر من الحياة. فقلت لرفيقيّ في السجن، إن الأمر في الحقيقة ليس ماذا نتوقع من الحياة، وإنما ماذا تتوقع الحياة منا ؟ قلت بأن الحياة تنتظر شيئا مهما منا.

وفي الواقع كانت المرأة ينتظرها طفلها في الخارج، وكان للرجل سلسلة من الكتب التي بدأ بكتابتها ونشرها، ولكنه لم ينته بعد.

قلت إن على الإنسان أن لا يسأل ما يمكنه أن يتوقع من الحياة، وبدلا من ذلك عليه أن يفهم أن الحياة تتوقع شيئا منه. ويمكن صياغة هذا الأمر بالشكل التالي: في آخر المطاف يجب أن لا يسأل الإنسان: "ما معنى حياتي؟" ولكن يجب أن يدرك أن السؤال يوجه إليه هو نفسه. إن الحياة تضع مشاكلها أمامه، والأمر منوط به أن يجيب على هذه الاسئلة، ويستطيع أن يجيب عن الحياة بالإجابة عن حياته.

وإذا نظرنا للأمر بهذه الطريقة فسوف تزودنا الحياة بهدف رائع، وهو أن نقضي الحياة بكاملها لخدمة الآخرين. كنت أعرف أسرة، فقدت العديد من أفرادها، وكان بعضهم يموت بسلام وبعضهم يموت بعذاب. ويبدو أن الاختلاف في وفاتهم يرتبط بالطريقة التي أمضوا فيها حياتهم. هل بذلوا حياتهم في الخدمة أم عاشوا بأنانية.

أن تعيش بأنانية، هو أن تشعر باستمرار بماذا يجب عليك أن تتحلى، حتى ولو عملت تضحيات هنا وهناك. وينتهي الأمر بنا بأن نرى كل شيء بمنظار "كيف يؤثر بنا". إنها طريقة في الحياة تمنح القليل من السلام. إن خدمة الآخرين تنقذنا من هذه الورطة، لأنها تذكرنا بالشيء الذي نعيش من أجله، وتساعدنا أن ننسى أنفسنا. وهي تعطينا أيضا وجهة نظر جديدة، تسمح لنا أن نرى حجم حياتنا بالنسبة الى بقية الكون.

<u>إن الخدمة الحقيقية هي في إظهار الحب لشخص آخر</u>. ويسهل نسيان

ذلك حتى في مجتمع متدين مثل المجتمع الذي أعيش فيه، حيث الخدمة هي جزء من الحياة اليومية لكل فرد منا. وعندما نترك عملنا يصبح غاية في حد ذاته، فاننا نفقد الرؤية الصحيحة للحب الذي يعطيه هدفا وسلاماً أعمق، ويصبح عملنا بصورة تدريجية روتينيا بدون فكر. **وعن طريق الحب تأخذ أكثر المهام الدنيوية والروتينية معنى، وتصبح أنبل المهام بدون المحبة عملا مملا.**

زرت قبل فترة قصيرة قرية تسمى بلم، وهي مجتمع بوذي صغير في فرنسا. ويزور المئات من الضيوف قرية بلم كل عام، ويأتي بعضهم من أجل التأمل الهادئ. وينضم آخرون إلى اعتكافات روحية يقودها راهب فيتنامي يتكلم بهدوء ويرأس الاجتماعات (عرف بقيادته لحركة السلام في الستينات). ولا داعي للقول بان سكان القرية الدائمين – عائلات – والأشخاص غير المتزوجين والرهبان – يبقون مشغولين. وشعرت بالدهشة من الطريقة التي يعتبرون بها العمل خدمة.

يوجد دائما الكثير لعمله في قرية بلم، حيث ترتفع البنايات الجديدة، وتجري ترميمات وتجديدات على البيوت القديمة، وتجري العناية ببساتين واسعة. ولكن العمل من أجل ذاته لا أهمية له. وبدلا من قبول التأكيد الغربي المألوف على ماذا يجب إنجازه في بحر النهار، فان الناس في قرية بلم يهتمون بالمثل الأعلى: "العيش في اللحظة الراهنة". ويحاولون أن يروا في كل موقف وكل عمل وكل مقابلة مع إنسان آخر فرصة ليصبحوا أكثر حيوية. وشرح لي كارل ريدل الأمر قائلا:

"إن فن الاهتمام بالعمل يساعدنا في إعادة النظر في مجمل فكرة كوننا فعالين. ويساعدنا في مساءلة أنفسنا حول هوسنا بالأهداف، والفكرة التي تقول إن عمل كل شيء يجب أن يتم "بالضبط هكذا". إنه يجعلنا ننظر في ضوء جديد إلى صورتنا الجيدة أو السيئة عن أنفسنا في بعض المهام، ويساعد في الكشف عن الفرح الذي ينتج عن كل شيء نفعله، سواء إذا كنا نعمل في البيوت البلاستيكية الزراعية أو نقطع الخشب أو ننظف الحمامات أو نكتب أو ننشر الغسيل. وفي أحيان كثيرة لا نعمل باهتمام، وندع شعورنا بالانشغال يحطم انسجامنا وسعادتنا.

ويلقي هذا البيت من الشعر من كتاب أناشيد قرية بلم مزيدا من الضوء على هذا الاتجاه، ويكشف عن أولويات المجتمع، على الأقل فيما يختص بالخدمة:

أعد بأن أوفر الفرح لشخص في الصباح

وأخفف الأسى عن شخص آخر بعد الظهر

أعد بأن أعيش ببساطة وهدوء

قانعا بممتلكات قليلة

أعد بأن أحافظ على صحة جسدي

أعد بأن أترك جميع الأمور المعلقة والمشاغل

لكي أكون خفيفا وحرا.

١٤

الحياة بالصلاة

"تحقق الصلاة أشياء كثيرة

لا يحلم بـها الناس في هذا العالم"

اللورد الفرد تينسون

هناك أوقات يبدو فيها أن لا شيء يعطينا السلام مهما حاولنا ذلك. وبالرغم من أننا نكافح من أجل البساطة والصمت – من أجل العزلة عن الأشياء المقلقة حولنا أو داخلنا – لا نزال نشعر بأننا لا زلنا في فراغ. وفي مثل هذه الأوقات عندما يفشل كل مصدر آخر، فإن الصلاة تبدو ملجأنا الأخير. إنها إقرار قدراتنا محدودة واسترحام للمساعدة من قوة أعظم.

لقد عرفت العديد من الناس الذين هزوا أكتافهم عندما وجه لهم السؤال التالي: هل تقومون بالصلاة. فهم يقولون: "ما هي الغاية من الصلاة؟" ويخبرني عدد آخر من الناس بأنه من خلال الصلاة يكسبون علاقة مع الله تملأ فراغهم. وبالنسبة لهم فان الصلاة ليست ملجأ أخيراً، إنها نمط حياة مستمر.

يقول الفيلسوف اليهودي "مارتن بوبر" إنه عندما نصلي يجب أن نصرخ، وأن نتخيل أنفسنا معلقين على صخرة من شعرنا، وعاصفة تهب بعنف

حولنا، بحيث نكون متأكدين بأنه لدينا لحظة قصيرة لإنقاذ أنفسنا. ويستمر بوبر قائلا: "**لا توجد في الحقيقة مشورة ولا ملجأ ولا سلام لأي شخص سوى أن يرفع عينيه وقلبه إلى الله ويصرخ إليه. ويجب على الإنسان أن يفعل ذلك في جميع الأوقات، لأن الإنسان في خطر عظيم في هذه الدنيا.**"

إن صورة بوبر الخيالية دراماتيكية، ولكنها غير مبالغ فيها. وفي ثقافة مثل ثقافتنا، حيث تصل الذراع الطويلة لوسائل الإعلام إلى مدى بعيد، بحيث تصبح أخبار الشهرة والفضائح والكوارث – مثل موت الأميرة ديانا في ايلول ١٩٩٧ – قادرة على إيقاف ملايين من الناس في الطرق. ولم يكن الفرد في الماضي معرضا الى مثل هذا الإغراء إلى اتباع الجمهور. وعرف نيتشه هذا قبل مئة عام، عندما تأمل حقيقة المثل القديم: "الجماعة تجعل المألوف (خاما)" وحذر من أخطار مجتمع حيث تكون فيه القيم الجماهيرية قوية بحيث تستطيع أن تميت أقوى ضمير أو إرادة.

ومن السهل جداً أن نفقد قوة الشخصية أو نسقط فيما يسميه علماء الاجتماع "غريزة القطيع"، وأن نقع فريسة الخوف من الآخرين، فريسة الطموح والرغبة في إرضاء الناس. إن اجتياح آراء الذين حولنا لحياتنا الداخلية، وأخيراً تفرقها، يجعلنا نقتنع أنفسنا بأننا أسياد أنفسنا، ولكن العديد منا لا يستطيع في واقع الحال أن يفكر لنفسه. ونقتبس من نيتشه قوله: "إن حياتنا تتألف من التوافق المستمر مع جميع أصناف التأثيرات الجماعية المختلفة والمطالب الاجتماعية".

ولا ضرورة في الواقع لأن يكون الحال هكذا. يمكن صد هذه التأثيرات

والضغوطات الخارجية. والصلاة هي أفضل وسيلة للدفاع في وجه هذا الهجوم – إنها مثل درع واق حول الشعلة الهادئة للقلب. إن الصلاة أكثر من هذا: إنها النظام الذي يعطي الحياة ويؤكد عليها، والنظام الذي يردنا إلى صوابنا – ونرجع إلى الله – عندما نكون قد ضللنا السبيل. إنها توجهنا الى مصدر السلام. وكما يقول مالكولم ماجريدج:

"بين هيجان الحياة في الخارج واليأس الأسود في الداخل، يمكن دائما الاستدارة جانبا والتوجه نحو الله. وكما لا توجد حركة في مركز الإعصار، وتوجد سماء صافية فوق الغيوم، فانه يمكن عمل فسحة صغيرة في الأدغال تتكون من إرادتنا الإنسانية من أجل اللقاء مع الله. وسوف يظهر دائما رغم أننا لا نستطيع أن نتنبأ بأي مظهر وظرف سيظهر – ربما كغيوم سائرة من المجد أو ربما لمستعطي في نقاء الصحراء أو في بؤس حي سوهو في لندن او في ساحة التايمز في نيويورك."

لا داعي أن تكون الصلاة بصورة رسمية. وبالنسبة لامرأتي ولي فان الصلاة هي الطريقة الطبيعية التي نبدأ فيها وننهي يومنا معا، نصلي كل صباح عندما ننهض، وكل مساء قبل أن نذهب للنوم. ربما يصلي البعض أكثر من هذا وآخرون أقل. ويصلي بعض الناس على ركبهم وآخرون يستعملون كتاب الصلاة. ويتكلم البعض عند الصلاة، ولا يستعمل البعض الآخر الكلمات إطلاقا. وطالما كانت صلاتنا حقيقية، وليست مجرد طقس فارغ، فانه لا يهم كيف نقوم بها. الشيء المهم هو أن نجعل حيزا لها في مكان ما.

يشجع الإنجيل الناس على "الصلاة بلا انقطاع" وتمثل هذه القضية

٢

بالنسبة للبعض عقبة في حياتهم. فكيف يصلي الإنسان طوال النهار؟ ماذا تعني كلمة "بلا انقطاع"؟ وبالنسبة للآخرين فان الفكرة ليست فقط بسيطة، ولكنها تحمل الكثير من الإلهام. ويشرح ذلك صديق قديم هو جيمس، فيقول:

"بالرغم من أنني كنت أصلي منذ وقت بعيد، فعندما بدأت أفهم الصلاة بأنها طريقة حياة – اتجاه ثابت بدلا من عمل متكرر – فانني فهمت فكرة الصلاة بلا انقطاع. إنها نظرة إزاء الحياة."

وأخبرني أحد الأشخاص بأنه قد فهم الصلاة بنفس المعنى في الفترة الأخيرة، وقال بأنه اعتاد أن يصلي عندما كان يتحدث مع الله في أوقات معينة من النهار، في الصباح أو قبل أن يذهب للنوم. والآن أعرف بأن الصلاة محادثة طوال النهار. أصلي وأنا أمشي في المطار أو في ممر في مركز التسوق."

يأخذ الشاعر "جيرارد مانلي هوبنكنز" الذي عاش في القرن التاسع عشر هذه الفكرة إلى مدى أبعد، ويقترح أن أكثر الأعمال حقارة في حياتنا يمكن رؤيتها على أنها شكل من الصلاة. كل الأمر يعتمد على كيفية القيام بها:

"ليست الصلاة فقط هي التي تعطي الله المجد، ولكن العمل أيضاً، العمل أياً كان وكل شيء يعطي الله بعض المجد. إن رفع الأيدي في الصلاة يعطي الله المجد، والرجل الذي يكنس الأرض، والمرأة التي تمسحها، يعطيان الله المجد أيضاً. إن الله هكذا عظيم بحيث أن جميع الأشياء تعطيه العظمة إذا قصدت بأنه يجب على الأشياء أن تعظمه.

كل واحد منا يصلي بشكل مختلف. وبينما تتغير ظروفنا – خلال المرض

وكبر السن والأزمات – كذلك تتغير صلواتنا."

* * *

لقد وجد الشاب الأمريكي "دوغ" أن الصلاة تخلو من المعنى. ولقد شعر بالغضب بسبب النفاق الذي لاحظه في إحدى الكنائس. وجد نفسه في خلاف متزايد مع عدد كبير من المسيحيين الذين قابلهم في شبابه خصوصا في قضية الخدمة العسكرية في أمريكا. وبعد إلقاء القنابل على "بيرل هاربور" مدح زملاؤه وأساتذته في جامعة نورث كارولينا رفضه الانخراط في الجندية – وأعجبوا بتصميمه على الوقوف إلى جانب معتقداته رغم اختلافهم معه في اعتقاده الراسخ، بأن قتل إنسان كان عملا خاطئا أخلاقيا. ولكن كنيسته رأت الأشياء بشكل مختلف. اعتبروا أن أعماله كانت لا شيء سوى الخيانة والجبن الواضح القديم. وكان القاضي الذي حاكمه وحكم عليه بأنه جانح لتهربه من الخدمة العسكرية، من إفراد الرعية التي ينتمي إليها.

"مكثت في سجن المقاطعة القديم في بلدتي "لكسينفتون" في ولاية كنتاكي وهو مليء بالقمل الكبير والطعام الرديئ، وكان دوش الحمام مكسورا ولا توجد مخصصات من الملابس. وتمكنت والدتي لحسن الحظ من إحضار صابون وملابس لي. كانت الفترة الأولى صعبة جدا، ولكن سماع قصة مهاجر الماني في المعتقل كان قد إصيب بالإحباط كليا قد خفف الوطء عني، فلقد اتهمه أحد الجيران باطلا بالتجسس.

وببطء – ومن خلال نصيبي الصغير من المعاناة وتحمل الملل والقذارة

والمعاملة السيئة – دفع بي إلى الاهتمام بهذا النزيل المحتاج في السرير المجاور، وبدأ يستيقظ في داخلي الفرح الذي يأتي من خلال العمل والعيش من أجل الآخرين. وبدأت أفهم ماذا كان يعني توماس كيلي بالعيش في "الآن الأبدية". لان كل نزيل كان يتحدث باستمرار عن الوقت الباقي حتى إطلاق سراحه، ويعيش للابد في المستقبل. عندما بدأت أعيش في اللحظة – ليس من أجل إطلاق سراحي، وليس من أجل الوجبة التالية أو الفيلم القادم أو الفرصة التالية للنوم – **أصبح ممكنا أن أكون في سلام حتى في السجن.**

كانت الفترات الأولى صعبة، ولكن دوغ من خلال الكفاح في حياته، **وجد الأمل والمعنى في الصلاة.**

" إنها ليست دائما قضية كلمات. فجزء منها هو التفات هادئ نحو الله طوال النهار، لمحة إلى أعلى، لحظة أو لحظتين من الصمت في تذكر أحد المرضى أو المحتاجين. وجزء منها هو التفكير بالاهتمامات والأسئلة المختلفة لليوم. جزء منها هو طلب النور لكي نتمكن من اكتشاف أخطائنا ومعرفة الأسباب التي سببت الأذى للآخرين. **تساعدني الصلاة في زيادة التصميم على وضع احتياجات الآخرين فوق احتياجاتي.** وفي كل هذا يوجد سلام."

* * *

كتب اللاهوتي السويسرى "كارل بارث" ذات مرة بأن شبك الأيدي في الصلاة هو بداية انتفاضة ضد الفوضى في العالم. وإذا كان هذا صحيحا، وأعتقد أنه صحيح، فان حياتنا في الصلاة لا توجد في مجال منفصل عن بقية حياتنا،

وإن صلواتنا يجب أن تكون أكثر من شوق أو نية.

وإذا أردنا أن يكون لصلواتنا تأثير على سائر العالم، فيجب أن تتحول إلى شيء أكثر من مجرد توسلات تتمركز على الذات من أجل السعادة الشخصية. إن الصلاة التي لا تحثنا على نوع من العمل هي مجرد نفاق.

* * *

ويلّمح "دوغ" إلى أهمية تضمين الآخرين في صلواتنا. وإننا نجد في العهد القديم والعهد الجديد، وعبر تاريخ الكنيسة المضطهدة وفي شهدائها الكثيرين، نفس الأفكار، لا بل نجد فكراً أكثر راديكالية: ممارسة الصلوات من أجل أعدائنا الذين يضطهدوننا ويسببون الأذى لنا سواء من خلال الاغتياب وتشويه السمعة والخيانة والعنف الجسدي أو أي شيء آخر. ويكتب "جيم" و"أليس" وهو كاتب معروف ومحرر "سوجورنرز" وهي مجلة تصدر في واشنطن العاصمة:

"طالما لا نصلي من أجل أعدائنا فإننا نستمر في رؤية وجهة نظرنا فقط– استقامتنا نحن – ونتجاهل وجهة نظر الآخرين. إن الصلاة تلغي الفروق بيننا وبينهم. إن القيام بالعنف نحو للآخرين يجعلهم أعداء، وفي المقابل فان الصلاة تجعل الأعداء أصدقاء."

أتذكر أثناء حرب الخليج، بعد أن شنت الولايات المتحدة هجومها البري الواسع النطاق على العراق في أوائل عام ١٩٩١، خاطب الرئيس بوش الأمة الأمريكية على شبكات التلفزيون، توسل الى المشاهدين بأن يتركوا ما كانوا

يعملونه ويصلوا من أجل "أولادنا" في الخليج. وأنهى خطبته بحماس قائلا "ليبارك الله الولايات المتحدة الأمريكية".

ويحتمل أن يكون معظم الأميركيين قد توقفوا وأدوا واجبهم الوطني بدون تفكير. ولكن من المحتمل أن تكون أعداد مماثلة من العراقيين، قد انحنوا إلى الله في تلك اللحظة مرسلين صلوات أعلى بالنيابة عن أزواجهم وأولادهم . فكيف يقرر الله أي أمة يدعمها؟

يصلي الناس إلى الله لأنهم يريدون منه أن يلبي بعض احتياجاتهم. إذا أرادوا الخروج في نزهة، يطلبون من الله يوما صافيا مشمسا. وفي نفس الوقت فان المزارعين الذين يحتاجون إلى المطر يصلون من أجل هذا. وإذا كان الطقس صافيا فان الذين خرجوا في نزهة يقولون: "إن الله معنا، فقد استجاب لصلواتنا". ولكن إذا سقط المطر فان المزارعين سيقولون إن الله قد سمع صلواتهم. وهذه هي الطريقة التي نصلي بها عادة.

عندما تصلي فقط من أجل نزهتك وليس من اجل المزارعين الذين يحتاجون المطر، فانك تفعل عكس التعاليم التي جاء بها المسيح، والتي قال فيها: "احبوا أعداءكم وباركوا لاعنيكم". عندما ننظر بعمق إلى غضبنا فاننا نرى ذلك الشخص الذي نسميه عدونا يتألم أيضاً. وحالما نرى ذلك فانه يكون لنا المقدرة لقبوله والشفقة عليه. وسمى يسوع هذا "محبة العدو"، فعندما نتمكن من أن نحب عدونا تختفي فكرة "العدو" ويحل محلها فكرة شخص ما يعاني الكثير وبحاجة إلى شفقة. إن محبة الآخرين في بعض الأحيان أسهل مما يمكن أن نفكر به. ولكننا نحتاج إلى ممارستها.

١٥

الأضواء والكاميرا

"إني أشعر بأن ذوي الإرادة الشريرة قد استخدموا الوقت بشكل فعال أكثر من ذوي الإرادة الطيبة. ويجب أن يشعر هذا الجيل بالندم، ليس فقط على الكراهية والأعمال الشريرة التي قام بها البعض، وإنما أيضاً على الصمت المخيف للناس الأخيار."

مارتن لوثر كينج

إذا كان أي شيء يبدو واضحا ابتداء من الآن، فيجب أن يكون أن السلام لا يعني الخمول. صحيح أنه يتضمن الهدوء والراحة، ولكن هل يعني ذلك القبول بالذاتية والسلبية؟ إن تحقيق السلام هو استجابة للأماني التي لم تتحقق: إنه نهاية للألم ودموع الشك المدمر والأعمال السيئة، إنه الكمال والشفاء. وفي الوقت الذي يحقق فيه السلام كل هذه الأشياء، فانه في نفس الوقت نداء للعمل ولحياة جديدة. ويمكن أن يأتي السلام من التأمل والصلاة، ولكنه لا يتوقف هناك. إنه يفرض التزامات جديدة، ويتطلب طاقات جادة، وإبداعاً جديداً. وينمو السلام مثل البذرة تحت سطح الارض، بصمت دون أن نراه، ويتفجر بعد ذلك بالحيوية، ويزهر ويعطي الثمر أخيراً.

عندما ينمو السلام في داخلنا، فإن أمره متروك لنا لكي نشترك به مع

الآخرين. ونحن الذين نحصل عليه لا نستطيع الاحتفاظ به لأنفسنا، بعيدا عن الذين حولنا، متجاهلين ورطة هؤلاء الذين لا يملكونه.

ويتحدث تيتش نهات ناهن من وجهة نظره البوذية الملتزمة التي تؤكد بصورة متساوية على التأمل والالتزام نحو الآخرين، ويتذكر حرب فيتنام والمأزق التي سببتها له. هل كان السلام ثمرة التأمل أم العمل ؟

بعد أن قصفت العديد من قرانا بالقنابل، كان علي أن اقرر مع أخوتي في الدير، ماذا نفعل؟ هل يجب علينا الاستمرار في ممارسة الصلاة في داخل الدير، أو أن نترك قاعات التأمل، ونذهب لمساعدة الذين كانوا يعانون تحت القنابل؟ وبعد تفكير عميق قررنا أن نفعل كلا الأمرين معاً – أن نخرج ونساعد الناس، ونقوم بذلك بروحٍ ملتزمة، فعندما تكون هناك رؤية واضحة، يكون هناك أيضاً عمل. وإلا ما هي فائدة هذه الرؤية ؟

إذا أردنا العيش بسلام مع أخوتنا في الإنسانية، تقع علينا مسؤوليات محددة لا يمكن الهروب منها، ويجب مواجهتها مثلما فعل نيتش نهات هانه ورهبانه. **لا نستطيع أن نختار العيش في انسجام مع الطبيعة أو مع أنفسنا ونستثني الآخرين.**

عندما ينطلق شخص في البحث عن السلام، فان بحثه ينبع من الرغبة في إيجاد حياة أعمق وأكثر صدقاً، وليست حياة يملؤها الفراغ. فقد أخبرني العديد من الناس من الذين عملوا في الجيش أو في مجال الأعمال أو ربات البيوت أو القساوسة أو الذين تركوا مقاعد الدراسة الثانوية والمهنيون المثقفون، نفس الشيء: لا يعني السلام أن نقول لا فقط للعنف والجشع والشبق

الجنسي أو النفاق، وإنما أن نقول نعم لشيء يحل محل جميع هذه الأشياء.

لقد رويت في فصل سابق قصة جون وينتر، وهو موظف يعمل في مختبر أحد المصانع، ترك عمله بعد أن اكتشف أن شركته متورطة في صناعة الذخيرة العسكرية، وهو يقول:

"رفضت العنف، وبدأت أبحث عن السلام، ولكنني أدركت حالاً أن السلام هو أكثر بكثير من غياب الحرب. ومللت من القول إني لا أستطيع أن أنخرط في الجيش. فماذا أستطيع أن اعمل؟ كنت أبحث عن بديل الحرب وليس نهاية لها فقط. أردت أن ألزم نفسي بطريقة مختلفة. أردت شيئاً أعيش من أجله وليس مجرد شيء أحارب ضده."

ودون أن نعرف الشيء الذي نعيش من أجله، سنجد صعوبة في خوض قتال ضد أي شيء. إن الشعور بالضعف والعجز يدمر مقدرتنا على الاستجابة للتحدي: وتصبح صرختنا اليائسة: "ماذا أستطيع أن أعمل ؟".

أطلق العازف الموسيقي "فردان سمايلوفيتش" هذه الصرخة أيضاً عام ١٩٩٢ أثناء حصار سرايفو، ولكن بدون استسلام يائس. كانت استجابته ناتجة عن الحقيقة الدموية القاسية التي أحاطت به. فقد عمل بإيمان قوي ما استطاع أن يقوم به، كما يقول:

"كان هناك حانوت لبيع الخبز بالقرب من بيتي في سرايفو. وفي يوم ٢٧ أيار ١٩٩٢ ، وقف أمام هذا الحانوت صف طويل من الناس وهم ينتظرون شاحنة الخبز. انتظروا بصبر وبكرامة لساعات طويلة. ولم تكن هذه هي المأساة. فكما لو لم يكن كافياً أن يكونوا جائعين وتعساء، فبدلاً من أن يصل

الخبز حصل انفجار رهيب. انفجرت قذيفة شيطانية على بعد خطوات منهم فقط، وقتلت واحدا وعشرين من هؤلاء الناس الأبرياء الصبورين والجائعين.

وفي أعقاب هذا الحادث المفجع مباشرة، كان هنالك صمت مطبق وصدمة كبيرة. الفوضى والبكاء والصراخ والدماء – أجسام ممزقة مطروحة وأخرى جريحة تنزف وتموت. وهرب البعض في رعب وهلع، وركض آخرون باتجاه المجزرة لمساعدة الجرحى. وصلت السيارة الأولى، وقفز المنقذون فوق الأجساد الميتة وهم يحأو لون وضع الجرحى في داخل السيارة وفي صندوقها أيضاً. وجاءت سيارات أخرى بعد ذلك. وأصيب أحد المنقذين بنيران قناص. وتم إخلاء ذوى الجراح الخطرة أو لاً، ثم الذين أصيبوا بجروح بسيطة وأخيراً الموتى.

لم أستطع النوم في تلك الليلة، جلست أفكر في الحياة والموت. ولم أستطع أن أفهم لماذا انتهت حياة هؤلاء الناس الأبرياء من المواطنين والجيران الطيبيين والذين أمضيت طفولتي معهم. لماذا انتهت حياتهم بهذه الطريقة المرعبة. وعرفت أن الحياة في زمن الحرب لا تسأو ي شيئا على الإطلاق. وامتلأت نفسي بالأسى فاستغرقت في النوم حتى الفجر، ثم استيقظت على أصوات انفجارات جديدة وأصوات جيراني الذين كانوا يحملون الأطفال والبطانيات إلى الملاجئ. ذهبت بنفسي إلى الملجأ ورجعت بعد أن انتهى القصف. غسلت وجهي ويدي وحلقت ذقني، وأرتديت بدون تفكير قميصي الأبيض والبدلة السوداء وربطة العنق البيضاء وأخذت كمنجتي الكبيرة وغادرت المنزل.

وبينما أنا انظر إلى الدمار الجديد، وصلت إلى مكان المجزرة، وكان مزينا بالورد والأكاليل ورسائل السلام. وعلقت يافطات على الحوانيت المجأو رة

تخبر عن الذين قتلوا. وكان هناك على طأو لة قريبة سجل رسمي للتعازي، يقوم الناس بالتوقيع عليه. فتحت حقيبة كمنجتي الكبيرة، وجلست وأنا لا أعرف ماذا أعزف. كنت ممتلئا بالحزن والاسى، ورفعت قوس آلتي وعزفت تلقائياً. فكرت في المصير القاسي الذي أصاب جيراني، وأنا أدرك أن نفس المصير أو أسوأ من ذلك يمكن أن يحدث ثانية في أية لحظة. كنت أعزف وأبكي في نفس الوقت. وانسابت الألحان الموسيقية كالدموع، كانت المعزوفة "اداجيو البيوني" أكثر أنواع الموسيقى التي أعرفها حزنا.

توقف المارة واستمعوا إلى الموسيقى واشتركوا معي في البكاء. وضعوا الزهور وصلوا وأشعلوا الشموع. وعندما أنهيت العزف لم يكن هناك تصفيق. نهضت ببطء ووقفت في صمت لمدة دقيقة أمام المكان، ووضعت الآلة في صندوقها. تجمع الناس حولي وتحدثنا. ولاحقا، في مقهى مجأو ر، طلب مني الأصدقاء أن أعزف ثانية وأن أعيد موسيقى الصلاة من أجل السلام. أرادوا مني أن أعزف لهم – لأن الموسيقى كانت تشفيهم وتشفيني أيضاً. وأدركت عند ذلك بأن الأمر لم يعد قضية شخصية، ولذلك قررت أن أعزف لمدة ٢٢ يوماً متواصلة، وأن أكرس يوما واحدا لكل واحد من الذين قتلوا في مجزرة صف الخبز.

هكذا بدأت مبادرة موسيقى فردان لأجل السلام، والتي أكسبته لاحقا شهرة محلية ودولية، كإسلوب للمقأو مة المدنية في البوسنة. ويعرف فردان اليوم في جميع أنحاء العالم بفضل عمله الاحتجاجي الشجاع. لقد ألهم عمله الكثيرين، فكتبت القصائد والأغاني، وألفت القطع الموسيقية والقصص. ولا

يـزال فـردان يصـر بأنـه "رجـل عـادي مثـل أي شـخص آخــر"، ولكنــه يقــر بــأن تربيته العائليــة الخاصـة، كـان لهـا اثرهـا في تزويـده بـالقوة مـن أجـل العمـل للوطـن عن طريـق اللاعنـف.

كـان والـده آفـدو سمـايلوفيتش مربيـا ومؤلفـا موسـيقيا معـاصرا، والأكـثر شـهرة في يوغسلافيا السـابقة. وهـو يقـول بـأن أمـه "منيرة" لم تكـن عازفـة موسيقية، ولكنـها امـرأة شجاعة، لأنـها تمكنـت مـن تكويـن عـازفين موسيقيين. وكـــان فـردان منـذ طفولتـه ينتمـي مـع أخوتـه إلى مجموعـة موسـيقية تسمى "ميزيكـا ادهومنيـم" أي – الموسـيقى مـن أجـل الشـعب – وآلـف والـده هـذه المجموعـة لتحقيــق المبـدأ الـذي يؤمـن بـه، وهـو أن الموسيقى والثقافـة الجيـدة ليسـت مـن حـق الأغنيـاء وأصحـــاب الامتيـازات فقـط، وإنمـا هـي بنفـس القـدر للنـاس الفقـراء وعامــة النـاس. وقدمـت الفرقــة الموسـيقية العائليـة عروضـها الخاصـة في القــرى البعيــدة والمجتمعــات الزراعيـة، وغيرهـا مـن الأمـاكن المعروفـة. واستطاعت أن تقدم مـا يقرب مـــن ١٨٠ حفـلا موسـيقيا في السـنة. وهكـذا فقـد ورث فـردان عــن والـده حبـه للموسـيقى، إضافة إلى حساسـية خاصـة نحـو الظلـم، وشـعور عميـق بـالالتزام الإنسـاني. وعندمـا كان يافعـا، غالبـا مـا كـان يرعـى الحفـلات وينظمـها لمساعدة المحتـاجين.

وكـانت أكـبر مآسـي التدمـير في سرايفو بالنسـبة لفردان، قصـف بنايـة المكتبــة الوطنيـة والجامعيـة الرائعـة. فقـد قـام بتكريـم ذكـرى والـده بطريقــة خاصــة عندمـا ذهب لينـدب ويرثي دمـار تلـك البنايـة بعـد يومـين مـن قصفـها بالنـيران.

كـان الدمــار قــد أصــاب المكتبــة الوطنيــة حديثــا ولا يــزال الوضــع ســاخنا وخطـيرا. وكـان الجـو رائعـا ! وكـان المكـان حزينـا ومجيــدا مثــل معبـد مقـدس في

نفس الوقت. وشعرت كما لو أن النفوس الغاضبة لجميع المؤلفين الذين أحرقت كتبهم، كانت هناك بصمت تحذر العالم بشهادتها. أحضرت كمنجتي الكبيرة وصورة والدي المحبوب – التي رسمها دوبريفويه بليكاسيتش، وهو فنان مشهور، كانت أعماله الفنية مثل بقية الأعمال الفنية لغيره من الفنانين معروضة في قاعات الطابق الثالث من المكتبة، وقد أحرقتها النيران بصورة كاملة. وكانت روح والدي المبجل أيضاً هنالك – وفي داخلي أنا أيضاً وفي الموسيقى التي أعزفها وفي رسم دوبريفيويه – وأرواح جميع الرسامين أمواتاً وأحياء. وكان لا أحد يستطيع أن يدمر تلك الروح، روح الفن والإبداع. وقد أو حيت بذلك بطريقتي الخاصة.

وعندما أنهيت العزف، أحضرت صورة والدي إلى البيت، ثم رجعت إلى مكان المجزرة، وتوقفت لحظة قبل أن أعزف مرة أخرى قطعة البينوني.

استمر فردان في جهوده الموسيقية من أجل السلام حتى كانون الأو ل عام ١٩٩٣، عندما أصبح أخيرا قادرا على مغادرة سرايفو. ومنذ ذلك الوقت ورغم أنه كان بدون آلة الشيلو (كمنجة كبيرة) في البداية، فقد دأب على عزف الموسيقى للناس في جميع أنحاء العالم، وتنقل بين أكبر قاعات الحفلات الموسيقية، وأفقر الأمكنة. ولا يزال يحمل الهام أبيه "الموسيقى من أجل الشعب" في أعماق نفسه.

يعيش فردان الآن في ايرلندا الشمالية، حيث وجد الوقت لتسجيل عدة مجموعات من القطع الموسيقة (واحدث مجموعة له هي البوم يحمل عنوان سرايفو/بلفاست". وهو مشروع مشترك مع المغني الشعبي تومي ساندرز).

وتمكنت الموسيقى التي يعزفها في اجتياز الحواجز الثقافة واللغوية، ولا زالت تمثل التحدي والإلهام، والرثاء والغناء.

"انني أشعر بقلق على الجنس البشري ونحن ندخل قرناً جديداً، وألفية جديدة، ما دمنا نقوم بالدمار باسم التقدم. إني أشعر بالقلق والخوف معاً. ولكني لا زلت أعزف الموسيقى لأنها هي الشيء الوحيد الذي أعرف كيف أقوم به بصورة جيدة."

وتستخدم المؤلفة ايمي كارمايكل صورا خيالية مأخوذة من ساحة المعركة لكي تتحدث عن السلام. وهي تقول: "إن الجندي الذي يستلقي في سريره بينما يدور رحى المعركة، لا يمكن أن يحصل على السلام. وأن أو لئك الذين يضحون بحياتهم في ساحة القتال، وهم أكثر عرضة لإصابتهم بالجراح، سيكون لهم السلام الأعظم."

ويؤكد جوناثان كتّاب، وهو محام فلسطيني، صدق هذا القول من خلال تجربته الخاصة. لقد قابلته مرات عديدة خلال رحلاتي إلى الشرق الأوسط وكانت كل مقابلة تزيد من احترامي العميق له. إن شجاعته التي تعبر عن شجاعة شعبه الذي يعاني من التمييز وسوء المعاملة على يد الحكومة الإسرائيلية – وقدرته على الصمود في الظروف الصعبة – تضعه في الخط الأمامي للكفاح من أجل العدالة في وطنه.

ويؤمن جوناثان إيماناً كبيرا بقوة اللاعنف، مقتفيا في ذلك أثر السيد المسيح: وهو يقول إنها قوة أكبر من قوة الجرافات التي تأتي لجرف الأرض وتسويتها للمستوطنين، ولتدمير البيوت ولتهديد حياة عدد لا يحصى من

الفلسطينيين.

"عندما يأتي الزبائن إلي من أجل طلب المساعدة في حماية بيوتهم، أقول لهم إن القانون لن يكون إلى جانبهم، لأنه لم يكتب للدفاع عن حقوقهم. وأقول لهم إن الصمود بلا عنف أمام الجرافات الإسرائيلية والاستلقاء أرضاً أمامها اذاً دعا الأمر لذلك، هو السبيل الوحيد لمساعدتهم.

قدمت هذه النصيحة لمجموعة من القرويين في إحدى القرى، ولم يمض وقت طويل بعد ذلك حتى تلقيت مكالمة هاتفية تقول: "ان الجرافات والجنود والمستوطنين موجودون هنا، ونحن نحاول أن نوقفهم."فركبت سيارتي وقدتها بأقصى ما أستطيع من السرعة، حتى وصلت إلى المكان، وقابلت الرجل الذي هاتفني. وعندما وصلنا الموقع، لم يكن هناك أحد. (لم أعرف أن الجنود قد وصلوا قبلي، والقوا القبض على المحتجين). كان هناك رجل واحد فقط يعمل على جرافة بدأت بتجريف الأرض وشق طريق، ومستوطن مسلح يحرس المنطقة. تقدمت إلى الأمام وقلت للرجل: "لا تستطيع أن تفعل هذا، فلا حق لديك. هذه أرضي". (وكانت الأرض بالطبع تخص موكلي). فقال: "اذهب من هنا. نحن نعمل!" ولكنني تحركت ووقفت أمام الجرافة تماما، وطلبت من الرجل الذي كان معي أن يقف خلفها. وعندما شاهدنا السائق نفعل ذلك، لم يرغب في إثارة المشاكل. نزل عن الجرافة وذهب . ثم جاء المستوطن وتسلق إلى غرفة السائق وأدار المحرك. فنظرت حولي. ولم يكن في المكان أحد – لا توجد كاميرات تلفزيونية لمحطة "الــ C.N.N "، ولا غيرها، ولا أي من المراسلين الصحفيين الذين اعتادوا تغطية أحداث الاستيلاء على أراضي الفلسطينيين. لم

يكن هناك أحد إطلاقا. أخـذت نفسـا عميقـا، وقلـت لنفسـي: "هـذا يـوم جيـد لكـي أموت فيـه"، وفكـرت حقيقـة بـأنني سأقتل.

طلبـت مـن الرجـل الآخـر أن يركـض إلى القريـة لكـي يحضـر بعـض الرجـال. وبقيـت وحيـداً مـع الجرافـة والمستوطن الغـاضب. وشـعرت في ذلـك الموقـف بنـوع من السـلام، وكنـت هادئـا ومسالما.

وعندمـا وجـد المستوطن أن لا أحـد يقـف خلفـه، رجـع بالجرافـة إلى الـوراء وحاول أن يسـير بـها. ولكـني تحركـت أمامـه ووقفـت هنـاك. ثـم خطـرت لي فكـرة عظيمة: أدرت ظهري لـه، لأن شيئاً قـال لي إنـه مـن الصعـب قتـل إنسـان لا ينظـر إليك. أدرت ظـهري وطويـت يـدي ورفضـت أن أتحـرك.

كـان توجـد أمـامي كومـة مـن الركـام، يحـاول المستوطن نقلـها، وكنـت أدافـع عنـها بشـعور غريـب ومدهـش جـدا. كـان المستوطن يشـغل محـرك الجرافـة ويـأتي أمامي بالضبط، ولكنـه عنـد ذلـك كـان يتوقـف.

إن اللاعنـف وسيلة قويـة، ووسائل الإعـلام تزيـد مـن قوتـها. كـان المسـتوطن في تلك الجرافـة يريـد مـني أن ألتقـط حجـراً، وأن أصـرخ عليـه وأشـتمه. ولـو فعلـت ذلك لكان مـن المؤكـد أنـه سيقتلنيَ في تلـك اللحظـة. ولكـني بقيـت سـاكنا، ووقفـت هناك بهدوء وقلـت: "لـن أجعلـك تحـرك ذلـك الركـام."

رجـع الرجـل الـذي ذهـب إلى القريـة بعـد نصـف سـاعة تقريبـا، بصحبـة الحـاكم العسكري وعـدد مـن النـاس الآخريـن في سيارات جيـب. وعندهـا قلـت: "انظـروا، أنـا محـام، وهـذه أرض موكلـي، ولا أسمـح لكـم بدخولهـا". فقـالوا "حسـنا، هنـاك محـاكم ". قلـت: " حسـنا، اذهبـوا إلى المحكمـة. هـذه

أرضي". ورفضت أن أتحرك. ثم اقنع الحاكم العسكري المستوطن أن يذهب بالجرافة بعيداً.

هناك سلام كاذب يدعمه الأغنياء والأقوياء والمضطهدون. والسلام بالنسبة لهم، هو المحافظة على اضطهادهم والوضع الراهن كما هو، بحيث أن لا شيء يزعج سيطرتهم. وتعد كل محاولة لتحدي سلطتهم على إنها خرق للسلام. ولكن السلام الحقيقي لا يرتبط بالمحافظة على مثل هذا السلام، وإنما بعملية صنع السلام. يجب أن يكون الإنسان أحياناً جازماً، لديه ثبات داخلي راسخ – سلام العقل الداخلي – واطمئنان بأنه يفعل الشيء الصحيح. وهذا يسمح له بأن يكون هادئاً في أكثر المواقف مواجهة. وبدون هذا فانه من السهل جداً أن يقع في الفخ وأن يصبح سيئاً تماماً مثل الشر الذي يحاول أن يقاومه.

وإذا سمحت للغضب والمرارة والكراهية والأنانية أو التركيز على الذات بأن تتغلغل فيك، يصبح من السهل جدا اجتياز الخط. وسوف تستعمل نفس الوسائل والأساليب التي يستعملها الذين يضطهدونك، ولن تكون أعمالك أفضل. إنني أشعر بالخسارة في اللحظة التي أخضع فيها للكراهية والمرارة، وأشعر أنهم يربحون. أنا خسرت– بغض النظر عن المناوشات أو المعارك التي كسبتها – لأنهم أظهروا أن طريقتهم هي الصواب، وأن عليّ أن أكون أكثر عنفا وعدوانية منهم.

لا أستطيع أن أدعي أنني وضعت حياتي في مثل هذا الخطر مرات كثيرة. ولكن وقوفي في ذلك اليوم أمام الجرافة – كان بالنسبة لي تجربة غريبة. أحسست بشعور عميق من السلام الداخلي. لقد أخذت نفسا عميقا ونظرت إلى السماء

الزرقاء الجميلة وقلت: "إنه يوم جيد لكي أموت فيه". ولم يحدث أبداً في حياتي من قبل أني شعرت بقوة حقيقية للسلام."

يتحدث الناس عن السلام طيلة الوقت، ويرغبون في تحقيقه، ولا أحد يقف ضده. ولكن من منا على استعداد لان يضع حياته في مواجهة الخطر من أجل السلام مثل جوناثان ؟ إن الدعوة إلى العمل تأخذ لدى كل شخص شكلاً مميزاً. فهي قد تؤدي إلى نشاط عملي بالنسبة لشخص، أو إلى خدمة اجتماعية بالنسبة للآخر، وبالتالي إلى دعوة مختلفة تماماً. ويمكن أن تكون ببساطة دعوة إلى المصالحة في مكان عمله، أو أن يكون أكثر تسامحا ومحبة في داخل بيته.

يمكن لعمل عظيم أن يكون أكثر نبلاً من عمل عادي لا يلاحظه أحد، ولكنه يمكن أن يشتتنا عن الأشياء التي ينبغي أن نقوم بها. ويمكن أن يسبب الضرر لأولئك الذين يحتاجون إلينا بشكل كبير. ويقول الكاتب الفرنسي جان فانييه محذرا:

"يسهل علينا في بعض الأحيان أن نسمع الصرخات البعيدة للفقراء والمضطهدين، وأن لا نسمع صرخات الذين حولنا. كما لا يوجد شيء عظيم جدا في الاستجابة إلى الشخص الذي هو معنا يوما بعد يوم ويثير أعصابنا."

إن السلام الحقيقي يأتي فقط إذا كنا مستعدين للعمل والتضحية بغض النظر عن المكان الذي نحن فيه، أو الشيء الذي نفعله. إن السلام الحقيقي يأتي مثل ريح منشطة تحرك كل شيء في طريقها، بعكس السلام الزائف الذي لا يلتزم بشيء، ويخلط كل شيء في ارتباك.

١٦

قل إنك تريد ثورة

"على المرء أن يأخذ جرعة كبيرة من الانسانية، وجرعة كبيرة من الشعور بالعدالة، وأن لا يسقط في العقائدية المتطرفة أو السكولاستكية الباردة، في عزلة عن الجماعة. يجب على المرء أن يكافح كل يوم حتى يتحول حب الإنسانية إلى أعمال ملموسة تكون بمثابة نمانج وقوة محركة."

تشي جيفارا

من بين جميع الشعارات التي سمعتها في المظاهرات والتجمعات التي نظمها نشطاء السلام عبر العقود القليلة الماضية، شعار: "لا عدالة فلا سلام". وهو من أبسط وأقوى هذه الشعارات. وإذا كان الحديث أو الكتابة عن السلام مهم، فإن العمل من أجله هو أكثر أهمية. وبعد أن يقال ويتم عمل كل شيء، فان السلام يكون حقيقيا إذا كان يؤدي إلى العدالة.

وبنفس الطريقة التي تسير فيها المظالم، وعدم المساواة الإجتماعية، والإضطهاد، والعبودية، والحرب، يدا بيد مع النزاع والانقسام، يجب أن يسير السلام يدا بيد مع العدالة. لأن العدالة تزدهر عند التغلب على هذه

الأشياء.

ويعني السلام بالنسبة للكثير من الناس، الأمن والقوة والاستقرار والقانون والنظام. والسلام له علاقة بالتعليم والثقافة والحياة المدنية، والصحة والتقدم والراحة والهدوء. ولكن هل يشترك الجميع في السلام القائم على هذه الأشياء ؟ إذا كانت الحياة الجيدة تعني خيارات عديدة، واستهلاك مفرط، لمجموعة قليلة تتمتع بالامتيازات، فالنتيجة التي تتبع ذلك، هي أن السلام يعني العمل الشاق والفقر الطاحن لملايين من الآخرين. هل يمكن أن يكون هذا سلاماً أو عدالة؟

عندما كان جدي يعيش في المانيا عشية الحرب العالمية الثانية، كتب يقول:

"إذا أريد للسلام أن يتحقق، فيجب أن يشمل جميع نواحي الحياة. لا أستطيع أن أقول إن السلام هو انعدام الحرب، وعدم قيام حروب أخرى. إن هذا القول ليس صحيحا. فالحروب لا زالت موجودة حتى اليوم. وإني لا أؤمن بسلام رجال الأعمال الذين يسعون إلى إيقاع الهزيمة بمنافسيهم، أو بسلام الأزواج الذين لا يستطيعون العيش بمحبة ووئام مع زوجاتهم.

عندما يقتل أكثر من ألف شخص دون محاكمة تحت ظل حكومة هتلر الجديدة، أليست هذه حربا ؟

عندما تسلب الحرية من مئات الآلاف من الناس في معسكرات الاعتقال، ويجردون من كل كرامة إنسانية، أليست هذه حربا؟

عندما يموت ملايين الناس من الجوع في آسيا، بينما تكدس ملايين الأطنان من القمح في أميركا الشمالية وأماكن أخرى، أليست هذه حربا؟

عندما يجبر الناس على العمل كالعبيد، لأنهم لا يستطيعون توفير الحليب والخبز لأطفالهم، أليست هذه حرباً؟

عندما يعيش الأغنياء في بيوت تحيط بها الحدائق، بينما تشترك عائلات عديدة في غرفة واحدة فقط، أليست هذه حرباً؟

عندما يكون لشخص واحد حساب بنكي ضخم، بينما لا يكسب آخر إلا ما يكاد يكفي للحاجات الأساسية اليومية، أليست هذه حرباً ؟

عندما يسبب السائقون المتهورون آلاف القتلى في حوادث السير كل عام، أليست هذه حرباً؟

وإذا أخذنا بالاعتبار حالة كوكبنا اليوم، فانه من غير المدهش أن يصرف الناس النظر عن السلام والعدالة، وأن ينظروا إليهما كحماقة خيالية. ويسألون كيف يستطيع أحد أن يكون في سلام عندما يكون الغليان والكرب في كل مكان. وتسخر أسلحة الدمار الشامل – التي تتوافر بحوزة عدد متزايد من البلدان – من أجل المحافظة على بقاء الإنسانية؟ كيف تكون هنالك عدالة عندما يتمكن عدد قليل من الأفراد الأغنياء التصرف والعبث بحياة الملايين في أرجاء العالم ؟

* * *

هذه هي الأسئلة التي كان "موميا أبو جمال" يتعارك معها لعشرات

السنين. وهو صحافي راديكالي وعضو سابق في منظمة الفهود السود، وأدين بجريمة قتل شرطي في فيلادلفيا، وحكم عليه بالموت في محاكمة تميزت بالتحيز العنصري الفاضح. لم يوافق "موميا" أبداً على تصنيفه بأنه شخص مسالم. ولكن في كل مرة تحدثت إليه من خلال الزجاج السميك لنافذة غرفة الزيارة في السجن، صدمت بالهدوء الذي يتميز منه. إن آماله وثقته في قوة الحق لا تتزعزع. وهو يعتقد أن العدل سوف يسود في النهاية. وقد كتب قائلا:

"كم هي مألوفة كلمة السلام هذه، وكم هي بعيدة عن حقيقتها! إن الناس الذين يكتبون عن السلام، يكتبون عن مملكة خيالية بتوقعات رومانسية حول ما يجب أن تكون – ولا يكتبون عن السلام الحقيقي.

ولماذا لا يمكن أن يتحقق السلام ؟ كيف يستطيع شخص أن ينطق بكلمة سلام على شفتيه بعد أن ينظر إلى الحياة في مدننا المكتظة، وسجوننا المتلئة، ومعسكرات الاعتقال. هذا سلام بدون روح، يقوم على هدوء المصاب بغيبوبة أو حمى، سلام النفوس التي نزعت منها الروح وتعيش في الغربة. إنه سلام الموت.

تتفجر النفوس في أعمال شغب هادئة، ويقمعها الإرهاب العسكري للدولة التي تعامل المواطنين السود فيها كالغرباء. إن هؤلاء الذين يصرخون "السلام" من أجل المضطهدين، هم في الواقع مجرد حلفاء للاضطهاد، ويقولون لهؤلاء الذين يضيق الحبل حول أعناقهم: "كونوا هادئين! أوقفوا العنف! السلام!"

إن السلام الذي يتحدث عنه معظم المسيحيين بعد مرور ألفي عام على ميلاد المسيح، موجود فقط في بقعة عارية من الأرض: في المقبرة. لا حياة

للسلام في مملكة الأحياء، لأنه أصبح حماية للأقوياء، ووسيلة لقمع الذين لا حول ولا قوة لهم. يتم الوعد به كأنه شيء حقيقي، ولكنه حلم يهمس به. وحتى ذلك الحلم تشوبه الكلمات. وكما قال جورج أورويل في روايته الكلاسيكية ألف وتسعمائة وثمان وأربعون "الحرب هي السلام. الحرية هي العبودية. الجهل هو القوة".

وأين سلام الله اليوم؟ يبقى السلام بالنسبة لمعظمنا سرابا. وهو وعد فارغ على شفتي السياسي الذي يخطط لسقوطنا، والتاجر الذي يستغل وسائلنا، والشرطي الذي يطلق النار ليقتل. إنه كذبة ينشرها القضاة الذين يقيدوننا، والمحلفون الذين يحكمون علينا بعبودية قانونية، والكهنة الذين يباركون إعدامنا."

ستبدو انتقادات موميا قاسية وغير عادلة لكثير من الناس. إنهم مصممون بأن روح السلام حية وبصحة جيدة، حتى ولو كانت مخبأة تحت عباءة النفاق هنا وهناك. أنا لست متأكدا من ذلك. وبدلا من صرف النظر عن موميا والقول بأنه ساخر منهك، يجب علينا أن نصغي إلى تحديه ونجعله يحركنا إلى العمل.

وما لم ترافق العدالة السلام، فانه يبقى عبارة فارغة. وكما تذمر النبي ارميا "سلام سلام هم يقولون، ولكن لا يوجد هناك سلام". وإذا كنا نشعر بإخلاص في طلبنا للسلام، ليس لنا فقط وإنما أيضاً للآخرين، ندرك عندئذ بأن علاقة جديدة بين الناس أصبحت ضرورية.

إن توم كيلي وجيمس تيت يمثلان نموذجا حيا للتحول الذي يمكن أن

يحدث عندما يمس المعنى الحقيقي للسلام قلب الإنسان. ولد كل منهما في بلفاست في ايرلندا الشمالية، وترعرعا ينشدان السلام والأمن لبلدهما. لقد عاشا على بعد دقائق عن بعضهما البعض، لكنهما ترعرعا في عالمين مختلفين: عائلة توم كاثوليكية وعائلة جيمس بروتستنتية. وباستثناء الاختلاف في اسميها، فان قصة كل منهما تشبه الأخرى لدرجة مدهشة. يقول توم:

"عندما اندلعت الاضطرابات في عام ١٩٦٩، كنت قد تركت المدرسة للتو. وبدأت شعارات الجيش الجمهوري الايرلندي تظهر على الجدران. ولم أستطع في ذلك الحين أن أفهم سبب كل ذلك.

لم أتعلم التعصب عندما كنا أطفالاً، وعندما سألت أبي عن ذلك، توسل إلي أن لا أتورط في الأمر. وقال لي إن هذا الأمر ليس من الله.

وبينما استمرت الاضطرابات، لاحظت الهستيريا المتزايدة في حارتي في بلفاست، وهي حارة "تيرف لودج" . كان هنالك رجال يركضون في الشوارع ويحملون البنادق والمسدسات، ويضعون الغاما أرضية خلف المتاريس. وظهرت صور عديدة للمواجهات بين القوميين والموالين على التلفزيون، وأصبحت الأمور أكثر توترا عندما تحرك الجيش البريطاني والشرطة الملكية. وأظهرت وسائل الإعلام حالة الفوضى، وأحسست لأول مرة بالتهديد، رغم أنني لم أعرف ما الذي سبب الرعب لي. كان عمري ١٥ عاماً. عرفت بأن بعض أصدقائي قد انضموا إلى صفوف الشباب في الجيش الجمهوري الايرلندي، وقررت أن انضم إليهم أنا أيضاً. تعلمت أن أفك الأسلحة، وتم تجنيدي في صفوف الجيش الجمهوري الايرلندي المؤقت. أطلقت رصاصتي الأولى،

وتعلمت مبادئ العنف. وعرفت في ذلك الوقت تماما بأن حياتي كانت عرضة للخطر، لان العديد من الرصاصات تطايرت حولي عندما كنت أطلق النار.

علموني بأننا كنا نقاتل من أجل جمهورية اشتراكية. لم أكن أعلم شيئاً عن الاشتراكية والشيوعية والمبادئ الأخرى. وبالنسبة لي كانت تلك موضوعات للأشخاص الأذكياء. ونظرت إلى نفسي كجندي فقط أدافع عن منطقتي.

وترعرع "جيمس" في بيت تميز بكراهية شديدة للكاثوليك، دون أن يقابل أحداً منهم، وهو يقول: "لقد ورثت الكثير من التعصب من والدتي. ونشأت في بيئة تقليدية، تعلمت فيها أن أسيء الظن بالكاثوليك مثل أي شخص آخر عاش في منطقتي".

"ترعرعت في "ساندي رو" وهي منطقة للطبقة العاملة في بلفاست. وكان كل شخص يعد نفسه بروتستانتيا رغم أن العدد القليل فقط منهم يذهب إلى الكنيسة. وبالتأكيد لم تذهب عائلتنا للكنيسة. إنه أمر غريب: نشأت وأنا اكره الكاثوليك، ولكني لم أقابل أحداً منهم. كانت تلك كراهية عمياء. لم يكن هناك كاثوليك في مدرستي أو في نادي الشباب، ولم نختلط مع بعضنا البعض".

وفي الفترة التي كنت فيها مراهقا عملت ما كان متوقعا مني، أنضمت إلى "النظام البرتقالي"، وشاركت في المسيرات والفرقة الموسيقية، وكان كل واحد مزينا بالقبعات الملونة وكل شيء آخر. ثم جاء عام ١٩٦٩ والكفاح من أجل الحقوق المدنية. وتطور الأمر إلى أعمال شغب وصدام مع الجيش البريطاني والشرطة. وكان رد الفعل على حملة القنابل التي قام بها الجيش الجمهوري الايرلندي، تكوين جماعات ومنظمات شبه عسكرية من الرجال الموالين مثلي.

وانتهى الأمر بي في الانضمام إلى قوة المتطوعين أولستر. كانت الفكرة بسيطة جداً: إذا ضرب الجيش الجمهوري الايرلندي مكاناً ما في المجتمع البروتستنتي بالقنابل، فإننا نضرب القنابل في مكان ما في المنطقة الكاثوليكية. وهكذا تطورت الأمور. وفي النهاية ألقي القبض علي في بيتي بتهمة الحصول على أسلحة. كان ذلك في صباح يوم عيد الفصح، حيث فتش الجيش البريطاني بيتي ووجدوا خمسة مسدسات."

ونتيجة لتورطهما في أعمال شبه عسكرية، انتهى الأمر بكل من توم وجيمس خلف الأسلاك الشائكة في معسكرات الاعتقال، كسجناء للجيش البريطاني الذي اعتبرهم مجرمين عاديين. أطلق سراح توم بعد سنتين ونصف. وزادت خلال فترة سجنه حدة كراهيته وحقده على الجيش البريطاني وجماعة الموالين شبه العسكرية. وعندما خرج من السجن عاد مباشرة إلى الجيش الجمهوري الايرلندي، وأصبح منشغلاً به أكثر من ذي قبل – وانتهى الأمر به إلى قضاء عشرة أعوام في السجن.

وأطلق سراح جيمس، بعد سجن خمس سنوات، وقرر أنه قد نال الكفاية. فذهب إلى البيت وعاد إلى زوجته، وقطع علاقاته مع قوة متطوعين أولستر، وحأول أن يجد لنفسه مكاناً في الحياة العادية. ورغم أن سجله في السجن قد جعل ذلك مهمة صعبة، فقد وجد في النهاية عملا من خلال كنيسة، ثم حدث في أحد الأيام تبدل في حياته:

"كنت جالسا في إحدى عربات النقل مع رجل مسن، واحد من المديرين. وبدأ يروي لي قصة حياته. كانت قصة هائلة: لقد تورط في تجارة المخدرات في

افغانستان، وتعرض للهجوم، وتمت سرقته وترك ليموت. أنقذه بعض الناس وأحضروه إلى بيته في ايرلندا. ومن خلال هذه التجربة أصبح مسيحياً يمارس واجباته الدينية. وبينما كان يروي لي هذه القصة، أدركت فجأة بأن هذا الرجل كان كاثوليكيا. وأن الناس الذين أنقذوه كانوا من الكاثوليك. وقبل أن أدرك الأمر كنت جالسا هناك في تلك العربة وأنا أبكي. ثم بدأت أقص عليه كل ما مر علي، أين كنت وماذا فعلت وكل شيء. تساقطت الدموع على وجهي دون أن اعرف لماذا."

وقليلاً قليلاً جرت أحداث في حياة "جيمس" أزالت تعصبه وكراهيته. وأصبح يدرك حاجته إلى المسامحة وإلى بداية جديدة . وهو يقول بأن الله لمس قلبه، وجعله ينظر إلى الآخرين نظرة جديدة.

وحدث في تلك الأثناء تغير راديكالي مشابه في مسار حياة توم. علمته السنوات داخل السجن أن العنف لا معنى ولا هدف له- بغض النظر عن الجانب الذي يثير العنف. واتخذ قرارا بأن يدع الله يرشد حياته. وعندما التقى توم وجيمس في اجتماع بين الطوائف، عانق كل منهما الآخر مثل أخوين لم يلتقيا منذ زمن طويل. وهذا سلوك غريب لرجلين كانا قد صمما ذات مرة أن يقتل أحدهما الآخر.

ويقضي توم وجيمس اليوم الكثير من الوقت معا. ولم يكن البيت الذي يسكن فيه جيمس بعيدا جدا عن بيت توم. وغالبا ما تتم دعوتهما إلى التحدث في الاجتماعات العامة. وتشجع الكثيرون عند سماع قصة حياة كل منهما. ولم يعد القتال من أجل الوطن بالنسبة لهما يرتبط بالولاءات والحدود، وإنما يرتبط

بصورة أكبر بتقريب القلوب وخلق أرضية مشتركة. وتعبر كلمات جيمس عن ذلك، فهو يقول:

"نحتاج في أيرلندا الشمالية إلى أن نبدأ من جديد ثانية . يوجد الشيء الكثير الذي يجعلنا متماسكين، أكثر من الأشياء التي تباعد بيننا. نحتاج إلى وضع المجتمعين معاً لأن الجهل يبني عدم الثقة. دع الأطفال يكبرون معا، وسوف يرون في الحال أنه لا توجد فروق بينهم.

* * *

سافرت قبل بضعة أشهر إلى أقصى ولاية في جنوب المكسيك، إلى تشياباس، لالتقي مع المطران صموئيل زويز جارسيا. دون صموئيل، كما يسمى، وقد رشح لجائزة نوبل للسلام لعمله مع الناس هناك، وخصوصا مع سكان البلاد الأصليين الذين يسكنون في القرى الجبلية الفقيرة.

يكرس دون صموئيل نفسه ببساطة إلى ما يسميه العمل المزدوج من أجل السلام والعدالة. وتضمن هذا العمل في السنوات الأخيرة القيام بدور وسيط بين المجتمع المكسيكي والزاباتيساس، وهي حركة لها جذورها، أقيمت للدفاع عن الحقوق الأساسية للمواطنين، والتي يأخذها معظمنا على علاتها، مثل ملكية الأراضي والحصول على العناية الطبية. ولا غرابة في أن انتقاداته قد جلبت له الكراهية والمضايقات، وخصوصا من الحكومة المحلية القمعية. وقد تعرض للاغتيال أكثر من مرة في السنوات الأخيرة. وفي محادثة معه في كانون الأول عام ١٩٩٧ أخبرني دون صموئيل:

"إن السلام للإنسانية لا يعني فقط غياب الحرب أو نهاية العنف. فقد قال الرومان: "إذا أردت السلام حضر للقتال". وبالنسبة لهم فان زمن السلام هو وقت الاستعداد للحرب. إن الأمر كذلك بالنسبة لنا أيضاً، ولكن بطريقة مختلفة. إن السلام بالنسبة لنا يتطلب نظاما اجتماعيا جديدا. إنه يتطلب علاقة أخوية جديدة بين الناس، ويتطلب تغييرا في التركيب الاجتماعي والاقتصادي للمضطهدين.

يحدد الفقراء تاريخ المجتمع الإنساني، والإنسان فقير نتيجة للصراع الاجتماعي. يوجد نظام يجعله فقيرا، ونظام يحرمه. وإذا كان الأكثر فقرا في مجتمع ما، هم نقطة المرجعية للخير العام، يكون لدينا عندئذ مجتمع يقوم بوظيفته. ولكن إذا كان الإنسان الفقير في مجتمع ما مسحوق على الأرض، فان ذلك المجتمع معارض للسلام.

إنه هذه المعاناة التي لا عذر لها، والأنانية التي تسببها، تدفع إناس مثل دون صموئيل للوقوف والانتقاد. هم يعرفون أن السلام الحقيقي والدائم يفرض معالجة عدم التوازن في مجتمعنا. وغالبا ما يلاقي هؤلاء الناس آذانا صماء. ويؤدي التحيز والخوف إلى جعل الناس لا يسمعون رسالتهم، وأن لا يهتموا بهم. ويذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك ويخرسونهم بقتلهم. يعرف دون صموئيل أن وقته يمكن أن ينفذ حالاً، ولكنه سيستمر. وهو يقول: "إن السلام مهمة وعمل علينا تطويره. إنه ليس قضية أو عقيدة، ولكنه ممارسة".

* * *

ويقدم إلينا الناشط الفلسطيني إلياس شقور تبصراً أبعد، إذ يقول:

" يرتبط السلام بمشاكل كثيرة ومخاطر وعمل شاق. إن الكلمة الآرامية "اشيري" لا تعني فقط "سعيد" ، إنها لها علاقة بكلمة "ياشار" المأخوذة من الكلمة العبرية "مستقيم": اجعل نفسك مستقيما. لذلك إذا جعت وعطشت للعدالة يجب أن تجعل نفسك مستقيما، وتعمل لتعطي نفسك وشعبك تلك العدالة. ونفس الشيء ينطبق على السلام. إنه لا يقال: "طوبى للذين يتأملون في السلام، وإنما "طوبى لصانعي السلام". وبكلمات أخرى، انهض وافعل شيئا. اجعل يديك تتسخان".

كلمة ختامية

حافظ على الإيمان

"الأمل هو الشيء المتروك لنا

في الوقت السيئ"

مثل ايرلندي

في آخر يوم من عام ١٩٩٧، سار مئات من هنود تزوتزيل في موكب تذكاري إلى قرية اكتيال في تشياباس في المكسيك، حيث قتل بوحشية خمسة وأربعون من مواطنيهم – معظمهم من النساء والأطفال – على يد ميليشيا محلية موالية للحكومة قبل تسعة أيام فقط. ولان المشاركين في المسيرة عاشوا في منطقة معزولة، أدت أداة القمع السياسي فيها إلى "اختفاء" الواحد تلو الآخر، ولهذا فقد عرفوا بأن المسيرة ليست بدون مخاطر. وكان الناس الذين يسيرون في المسيرة غير مسلحين، كانوا معرضين للخطر بسبب موقفهم: ورغم أنهم دعموا أهداف مقاتلي الحرية من جماعة زاباتسيتا المحلية، فانهم ظلوا معارضين للعنف، واتهموا من قبل الطرفين بالانحياز. ولم تكن مسيرتهم مجرد مقامرة، وإنما كانت تحديا يملؤه التصميم والأمل.

وكتب على يافطة فوق صليب خشبي كان يرتفع فوق الرؤوس: "إنه وقت الحصاد، وقت البناء". وحمل العديد من الرجال قطعا من الطوب (رمزا لثقل معاناتهم)، وقرروا استعمال الطوب في نهاية المسيرة لبناء نصب للموتى. وخطط

قسم منهم من أجل الاستيطان في القرية رغم أنهم عرفوا بأنهم يمكن أن يضطروا إلى الهرب ثانية. وحملوا تمثالا مشققا للعذراء مريم وظلوا ملتزمين باللا عنف.

من كان هؤلاء الذين قرروا بشجاعة أن ينظروا للموت وجها لوجه بهدوء كهذا؟ هل كان سلامهم علامة لقوة غريبة تشبه قوة الشهداء؟ هل كان ذلك علامة للجنون؟ ربما شعروا بما شعرت به ليز ماكاليستر الناشطة الأميركية من أجل السلام، والتي كتبت بعد سجن زوجها مؤخرا لاشتراكه في مظاهرة مناهضة للعسكرية ما يلي:

"إن رؤية الله ووعده لمجتمع إنساني عادل، هو الوعد الذي نستطيع رهان حياتنا عليه. لن يكون أحد منا سعيدا حتى يصبح هذا الوعد حقيقة لكل الناس. وهكذا فأنت تراهن حياتك على رؤية الله في إشعياء: ستأتي الأيام التي يضرب الناس فيها سيوفهم إلى محاريث، ورماحهم إلى أدوات، وهكذا نستمر ويساعدنا الله في ذلك الاستمرار. وإذا وضعنا التفاصيل لرؤية الله اليوم، لوجدنا أننا نتحمل جزءاً من عبء تحقيقها، لا أكثر ولا أقل.

إن السلام سعي لا يلين، ويحافظ عليه فقط بالأمل والشجاعة والرؤية والالتزام. ولكنه أيضاً قوة تعطي الحياة. إنه يشفى المريض ويملأ ما قد استعمل، ويفك رباط ما قد عقد. يجلب الأمل حيث يكون اليأس، والانسجام حيث يكون الخلاف، والمحبة حيث تكون الكراهية. إنه يجلب الكمال حيث تكون التجزئة، والثبات حيث يكون حلول وسط وخداع. يتغلغل السلام في كل مجال للوجود، الروحي والمادي. وإذا لم يحقق السلام هذا التحول،

فانه ليس سلاما حقيقيا على الإطلاق وإنما مجرد خيال.

كان فرنسيس الاسيزي يعي وعيا عميقا بمطالب السلام الحقيقي، ورغم أنه اليوم معروف كراهب يحب السلام، ويشبه الدكتور دوليتل الذي كلم الحيوانات والطيور في القرون الوسطى. فالقديس فرنسيس ليس شاعرا رقيقا وإنما روح متقدة. وبحثه عن السلام قاده إلى العمل مع الفقراء، ليس بالتخلي عن ميراثه فقط، وإنما بالتخلي عن ملابسه التي كان يرتديها أيضاً. إن وصيته الأخيرة وشهادته لم توفر له شيئا في شجبها الأغنياء والدين المؤسساتي، بحيث إنها صودرت وأحرقت قبل أن يتم تطويبه للقداسة. وكلمات الصلاة المشهورة المنسوبة إليه تظهر عمق روحه، التي تظهر لنا التحدي في كل مرة نقرأ فيها هذه الكلمات – بغض النظر كم أصبحت شائعة لكثرة استعمالها!

"اجعلني أ نر الحب حيث توجد كراهية

أن أسامح حيث توجد الإساءة

أن أزرع الإيمان حيث يوجد الشك

أن أنشر النور حيث يوجد الظلام

أن أقيم الفرح حيث يوجد الحزن

أيها المعلم الإلهي–

امنحني أن لا أنشد العزاء قدر ما أعزي

أن لا أفهم قدر ما أُفَّهم

أن لا أُحب قدر ما أحب

لأنه في العطاء ننال

وعندما نسامح فإننا نُسامح

و الموت نولد إلى الحياة الأ دية.

إن السلام هدف لجميع الناس في العالم، انه يبدأ بهدوء، من الداخل ودون أن يلاحظ أحياناً. إنه يحول الناس والأنظمة . والمكان الذي يسود فيه السلام يكون فيه الاتحاد بين الإنسانية مع الخالق.

لا يحدث أي من هذا من تلقاء نفسه أو في فراغ. ولقد رأينا في هذا الكتاب، أن طريق السلام لا علاقة لها بالسلبية أو الاستسلام. ليس السلام للخائفين أو المنهمكين في ذواتهم، أو القانعين بحياة هادئة. يتطلب السلام الحقيقي أن نعيش بأمانة – أمام الآخرين وعلى ضوء ضميرنا. وهكذا فان البحث عن السلام لا يمكن أن يكون أنانياً. ولا يمكن أن يكون مجرد قضية تحقيق العزلة، أو تحقيق الذات، أو كما قال أرسطو: "تحقيق طاقتنا البشرية الكامنة". كلا! إن البحث عن السلام يعني أن ننشد الانسجام داخل أنفسنا ومع الآخرين وفي النهاية مع الله.

وبالرغم من أن هذا يبدو عظيما، إلا أنه في الحقيقة بسيط جدا. وإذا لم نتمكن من الحصول على السلام، فذلك يعود لأننا نسينا أن نحب بعضنا البعض. وفي الحقيقة لا يوجد عذر لذلك. فلا أعتقد أن أيا منا تعوزه المقدرة على أن يُحب. ولعل أهم درس تعلمته من الذين رويت قصصهم في هذا الكتاب هو: لا تستسلم أبداً، لا تفقد الشجاعة مهما حدث. إن هذا الموقف هو الذي ساعد العديد من الأشخاص في أصعب الظروف واللحظات. ويمكن أن يفعل

نفس الشيء لنا أيضاً.

لقد عرف "هوغو جرن" وهو من الأشخاص الذين نجوا من المحرقة (هولوكوست)، أهمية الأمل وهو ولد صغير في معسكر الاعتقال "أوستشويز"، حيث كان مسجونا مع والده:

"بالرغم من الظروف التي يستحيل وصفها، فان العديد من اليهود، ومن ضمنهم والدي، تمسكوا بما استطاعوا بالممارسات الدينية. وفي إحدى الأمسيات في منتصف فصل الشتاء، ذكره أحد السجناء أن أول ليلة من عيد الأنوار ستكون قريبة. فصنع والدي في الأيام التالية "منوراة" من الخردة المعدنية. ولكي يضع الفتيل، أخذ خيوطاً من لباسه في السجن. وبدلا من الزيت استطاع بطريقة ما أن يحصل بالتملق على قليل من الزبدة من الحارس. وكانت مثل هذه الممارسات الدينية ممنوعة منعا باتا، ولكننا تعودنا على المخاطرة. والشيء الذي أحتججت عليه كان "ضياع السعرات الحرارية الثمينة". ألم يكن من الأفضل المشاركة بالزبدة على قطعة خبز بدلا من حرقها؟

قال والدي: "يا هوغو، كلانا أنا وأنت نعلم <u>أن الشخص يستطيع أن يعيش وقتا طويلا جدا بدون طعام. ولكني أقول لك، لا يستطيع الإنسان أن يعيش يوما واحدا بدون أمل</u>. إن هذا الزيت سوف يشعل لهب الأمل. لا تدع الأمل يموت أبداً. لا هنا ولا في أي مكان. تذكر هذا".

وتمثل قصة "جرن" الحقيقة التي اكتشفها كثيرون قبله وبعده: إن الأمل في نهاية الأمر هو الذي يجعل العيش ممكنا من يوم إلى يوم، وهو الذي يدفعنا

للاستمرار في هذه الحياة. ويقوم الأمل بدور البوابة إلى السلام.

وفي قطعة من رواية الاخوة كارامازوف يكتب فيودور دوستويفسكي عن اعتقاد مشابه، وذلك في المحادثة التي جرت بين الأب زوسيما ورجل غريب غامض يقول: " حتى تصبح في الحقيقة أخاً لكل شخص، فان الاخوة لن تأتي من العلم والمعرفة ولا من المصلحة المشتركة، وحين تعلم الناس أن يشتركوا بالممتلكات والامتيازات، سوف يفكر كل واحد أن حصته صغيرة جدا، وسوف يحسدون ويتذمرون ويهاجمون بعضهم البعض. أنت تسأل متى يحدث هذا . إنه سوف يحدث، ولكن أولاً يجب أن نجتاز فترة من العزلة.سألته: "ماذا تقصد بالعزلة؟"."إن العزلة التي تسود في كل مكان، وخصوصا في عصرك – لم تتطور بالكامل، ولم تصل إلى حدها بعد. لان كل واحد يكافح لجعل فرديته بعيدة قدر الإمكان. يرغب كل واحد أن يضمن أعظم قدر ممكن من ملء الحياة لنفسه، وينسى أن الأمن الحقيقي يجب أن يوجد في التضامن الاجتماعي، وليس في الجهود الفردية المعزولة. وهذه الفردية المرعبة يجب أن يكون لها نهاية في آخر الأمر، وفجأة سوف يفهم الجميع كيف كانوا مفصولين عن بعضهم البعض بشكل غير طبيعي. سوف تكون روح العصر، وسوف يدهش الناس بأنهم قد جلسوا هكذا طويلا في الظلام بدون أن يروا النور.

"وحتى ذلك الوقت، يجب أن تبقي الراية ترفرف. وفي بعض الأحيان وحتى إذا كان على الإنسان أن يفعلها لوحده ويبدو سلوكه جنونيا، فان على الإنسان أن يعطي المثل، وهكذا يخرج أرواح الناس من عزلتهم، ويجبرهم على بعض أعمال المحبة الأخوية، **لأن الفكرة العظيمة لا يمكن أن تموت**".

المؤلف

"لقد علمتني الحياة أن الحب الحقيقي ينقذ الإنسان

من الانشغال المريع بنواقص المجتمع".

الن باتون

إن مؤلف هذا الكتاب "جوان كريستوف ارنولد"، كاتب قصصي رائع. زود كتاباته بحكايات جمعها خلال سنوات طويلة من حياته، من خلال تجاربه وعمله، ولقاءاته مع شخصيات مشهورة مثل الزعيم فيدل كاسترو والباب يوحنا بولس الثاني وتيك ناهت هانه. ويعالج هذا الكتاب قضايا قريبة من الحياة مثل الجنس والعائلة والموت وغيرها من المشكلات التي يواجهها الناس عبر الأزمات التي يمرون بها في حياتهم.

عرف المؤلف بمواقفه الى جانب المضطهدين والفقراء في جميع أنحاء العالم، واحترامه الكامل للحياة. ظهر في العديد من البرامج التلفزيونية والإذاعية في الولايات المتحدة واستراليا وبريطانيا وايرلندا وأوربا.

يعيش ارنولد في ودكريست بردورهوف في نيويورك، وهي واحدة من المجموعات الثمانية التي تمثل حركة عالمية لحياة تخلو من العنف وتتميز بالبساطة اعتمادا على تعاليم يسوع المسيح.

ومنذ تأسيس أول مجموعة للبردرهوف في المانيا عام ١٩٢٠، يرفض أبناء هذه الجماعة المتلكات الفردية، ويشتركون في ممتلكاتهم الخاصة وفي وقتهم ومواهبهم. وتحتل العائلة ومحبة القريب والخدمة المكانة الأولى في التزامهم.

إصدارات مكتبة المنار

١- هل حقاً تكلم الله (طبعة ثانية)
٢-جوني
٣-لكي أربح (طبعة ثانية)
٤-رحلة في دروب الحياة
٥-أعماق نفسي (طبعة ثانية)
٦-نسل إبراهيم (جـ١)
٧-نسل إبراهيم (جـ٢)
٨-الحرب الروحية
٩-مع المسيح فوق الآلام
١٠-روعة الحياة بالإيمان
١١-يشفي نفسي
١٢-القيادة
١٣-العهود السبعة
١٤-كيف تنتصر على الخطية
١٥-المحبة حينما تبدو مستحيلة
١٦-أين أجد الوقت
١٧-اكتشاف المصير
١٨-العلاقات الصحيحة
١٩-سر القط الضاحك(أطفال)
٢٠-المسيح يحررك (كتيب)
٢١-أسرار النجاح الروحي
٢٢-مصر المباركة
٢٣-بالحقيقة أحرار
٢٤-أسس خدمة الشفاء
٢٥-حنان الآب
٢٦-رؤية المدينة بعيني الله
٢٧- دعوة إلى حياة الطهر والنقاوة
٢٨-لغات المحبة الخمس عند الأطفال
٢٩-بيلي جراهام (سيرة ذاتية)
٣٠-أخرج من مخبأك
٣١-الديداخي-أي تعليم الرسل(جـ١)
٣٢-الكنائس الشرقية وأوطانها (جـ١)
٣٣-حقائق وأساسيات الإيمان المسيحي
٣٤-التقليد الرسولي(جـ٢)
٣٥-الكنائس الشرقية القديمة(جـ٣)
٣٦-سر البغبغاء الثرثار (أطفال)
٣٧-المسيحيون الأوائل
٣٨-قصة ميلاد المسيح
٣٩-الانطلاقة
٤٠- نحو زواج ناضج
٤١-الكنيسة التي في بيتك
٤٢- إرشاد الصغار إلى الله
٤٣- إعادة بناء الحياة
٤٤- اشتاق إلى الله
٤٥- الأساس الكتابي للتربية في مرحلة الطفولة المبكرة (٥كتب + ٣ شريط كاسيت + ٧ بوستر)
٤٦- ٢شريط كاسيت بانوراما الكتاب المقدس للأطفال+كتاب
٤٧- شريط كاسيت حياة السيد المسيح - ألحان شرقية

البحث عن السلام

السلام هو هدف الشعوب والأفراد فى كل بقاع الأرض.

قد تكون أجتزت أزمة أو مشكلة حرمتك من السلام الداخلى ...

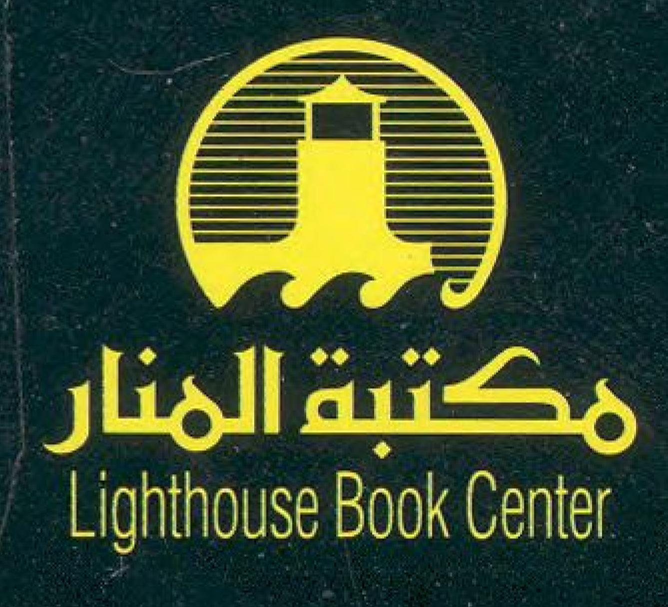
قد تكون باحثاً عن السلام وسط عالم مضطرب تسوده الحروب والصراعات الدامية...

أين نجد السلام؟

هذا الكتاب يستعرض مجموعة من القصص الواقعية لأشخاص عثروا على السلام رغم ما مروا به من أوجاع، فهل تجده معهم؟







٥ جنيهات